محمد رسول الله ﷺ

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء السابع عشر

تأليــف:
فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

أول خطبة جمعة

روى ابن كثير في (البداية) عن ابن جرير قال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وَهْب، عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة النبي ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عمرو بن عوف رضي الله عنهم: «الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل.

من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرَّط، وضل ضلالًا بعيدًا، أوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه لتقوى لمن عمل به على عجل ومخافة، وعون وصدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومَن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرًا في عاجل أمره، وذخرًا فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدّم، وما كان من سوى ذلك يودّ لو أن بينه وبينه

أمدًا بعيدًا، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد، والذي صدّق قوله، وأنجز وعده لا خلف لذلك، فإنه يقول: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (ق: ٢٩) واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية فإنه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ (الطلاق: ٥) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧١) وإن تقوى الله تَوَقِّي مَقْته وتَوقِّي عقوبته وتوقي سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه وترضي الرب، وترفع الدرجة، خذوا بحظِّكم ولا تفرطوا في جنب الله، قد علَّمكم الله كتابه، ونَهَج لكم سبيله؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢) ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه مَن أصلح ما بينه وبين الله يَكْفِه ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال ابن كثير: هكذا أوردها ابن جرير، وفي السند إرسال.

وليس هذا تضعيفًا للنص، ولكنه بيان لواقع الحال، والتعريف بالسند، والإرسال لا يكون ضعفًا في السند على إطلاقه، بل هو

عند مَن يقبله كغيره من السند المرفوع بل قدمه بعضهم عليه.

نص آخر لهذه الخطبة أو خطبة أخرى:

ثم قال ابن كثير: وقال البيهقي: باب أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ حين قدم المدينة.

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ - يعني شيخه الحاكم صاحب المستدرك - أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، حدثني المغيرة بن عثمان بن محمد بن عثمان، والأخنس بن شريق - لم أعثر بقدر طاقتي في البحث عن راوٍ اسمه الأخنس بن شريق، وهو اسم لأحد طغاة المشركين الذين تناهوا في عداوة رسول الله ﷺ، وإنما وجدت في تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر من اسمه الأخنس بن خليفة الضبي، والأخنس بن خليفة والد بكير بن الأخنس - عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فقدِّموا لأنفسكم، تَعْلَمُنَّ والله ليُصعقن أحدكم ثم لَيَدَعَنّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولنّ له ربه - ليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه -: ألم يأتك رسولي فبلَّغك، وآتيتك مالًا فأفضلت عليك، فما قدّمت لنفسك؟ فينظر يمينًا وشمالًا، فلا يرى شيئًا، ثم ينظر قدّامه فلا يرى غير جهنم،

فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومَن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تُجزَى الحسنةُ عَشْرَ أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته.

خطبة ثالثة

ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال: «إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إن أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح مَن زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا مَن أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملُّوا كلام الله وذكره، ولا تقسُ عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار الله ويصطفي، فقد سماه خيرته من الأعمال، وخيرته من العباد، والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن يُنكث عهده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

قال ابن كثير: وهذه الطريق - أي في الخطبتين الأخيرتين الثانية والثالثة اللتين رواهما البيهقي بسنده عن شيخه أبي عبد

الله الحافظ - مرسلة أيضًا إلا إنها مقوية لما قبلها وإن اختلفت الألفاظ.

نظر وتحقيق في أولية خطب رسول الله ﷺ بالمدينة:

وقد عقَّب السهيلي في (الروض) بعد أن شرح بعض الألفاظ في الخطبتين، وضبط قوله (إن الحمد لله) فقال: وقوله: «إن الحمدُ لله أحمده»، هكذا برفع الدال من قوله: «الحمدُ لله»، وجدته مقيدًا مصححًا عليه، وإعرابه ليس على الحكاية، ولكنه على إضمار الأمر، كأنه قال: إن الأمر الذي أذكره [الحمدُ لله]، وحذف الهاء العائدة على الأمر كي لا يقدم شيئًا في اللفظ من الأسماء على قوله: الحمد لله.

وإذا كان هذا الضبط هو لفظ رسول الله ﷺ فوجهه في العربية كما قال السهيلي، أما إذا كان هذا الضبط اجتهادًا في الرواية فلا وجه للالتزام بهذا الضبط وتوجيهه بما ذكر؛ لأنه لا مانع أن يبقى الكلام على ظاهره وتكون (إن) حرف توكيد ونصب، وهي عاملة في (الحمد) على أنه اسمها منصوب بها، وقوله (لله) خبرها وهو ظاهر.

ثم ذكر السهيلي عقب التعليق بشرح بعض كلم في الخطبتين قوله: وكانت خطبته في تلك الأيام على جذع، فلما صُنع له المنبر من طرفاء الغابة، وصنعه له عبد لامرأة من الأنصار، يُقال

لـه : باقوم، خار الجذع خوار الناقة الخلوج حتى نزل عليه السلام فالتزمه وقال : «لو لم ألتزمه ما زال يخور إلى يوم القيامة».

وفي هذا التعقيب دليل على أن هاتين الخطبتين اللتين ذكرهما ابن إسحاق ثم البيهقي بسنده عن شيخه أبي عبد الله الحاكم كانتا في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، لا في مسجد (غُبيب) في بني سالم بن عوف، وأن الخطبة التي رواها ابن جرير وهي الأولى من الخطب الثلاث في كتابنا كانت هي الخطبة التي خطبها رسول الله ﷺ في مسجد وادي رانوناء في ديار بني سالم بن عوف المُسمى مسجد (غبيب)، وهي أول خطبة جمعة خطبها رسول الله ﷺ في الإسلام بعد نبوته، كما صرح ابن جرير في سنده، وتكون الأولية في هذه الخطبة أولية مطلقة، وفي الخطبتين اللتين رواهما ابن إسحاق، ثم البيهقي بعده أوليةٌ نسبية، أي بالنسبة لمسجده ﷺ بالمدينة.

فخامة الحفاوة في مسيرة ركبه ﷺ من قباء إلى المدينة:

ارتفع ركب رسول الله ﷺ مع ارتفاع الشمس في أفق الحياة من ضحاء يوم الجمعة آخر يوم ودّع فيه ﷺ قباء وأهلها الغر الميامين، بعد الفراغ من إتمام بناء مسجدها المبارك وإعداده للصلاة والذكر ميممًا مستقره الدائم في المدينة المنورة، ذلك المستقر الذي كتبه الله لرسوله في سجل الغيب؛ ليكون دار إقامته

حياتـه كلها ﷺ، ومثوى جسـده الطاهر المطهـر، ومهبط روحه المشـرق الأنور، للرد على سـلام أمته إذا سـلَّمت عليـه، تجديدًا أبديًا لعهدها الأبدي برسـولها ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وجعل له في هذا المستقر الدائم مسجدًا خالد الوجود أبدي الذكر والمدد، فضله على سائر مساجد الدنيا، ليكون مسجدها الجامع ومنار هدايتها، تشـع لها من آفاقه أشعة العلم المنزل لها من سماء الحـق، ويمدها بالمعرفـة الهادية المهدية، يـأرز إليه الإيمان، إذا نكصـت الدنيـا على أعقابهـا جاهلة مباعدة للحـق والهدى وعاد الإسلام غريبًا كما بدأ، ويأوي إليه التوحيد الخالص الذي يفرد الله تعالـى بما هو أهله من وحدة التعبد له، وإخلاص الدين كله لذاته، وإسـلام الوجه لجلاله فـي كل ما يقتضيه كمـال الألوهية، وتنزل الفضل والإحسـان من سـماء إنعام الربوبية الغنيـة عن العالمين، ويتجلـى جـلال الله في ملكوت عزه، وسـلطان قهـره ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (الحشر: ٢٣).

تحرك الركب النبوي المُشـرَّف يحف بـه أوفى وفاء الأوفياء مـن المهاجرين والأنصار، وتحيط بحفافيـه كتائب جند الله في أعظم مظهر لفخامة الحفاوة وعظمة التكريم والإجلال ومظاهر

القــوة، يتنازعــون زمام ناقته، أيهم يكون له شــرف قيادها، وقد أعدوا أنفســهم لفداء الدعوة، ومتابعــة الداعي ﷺ في كل قول أو فعــل يصدر منــه؛ لأن قوله وفعله وحــي الله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٤) كما أعدوها لحماية الرسالة من كل ما يقف في طريقها معوقًا ســيرها في مجــالات الهداية، نصرًا لدين الله، وإعــلاء لكلمة الحق في آفــاق الأرض، ليخرج هــذا الدين القيم النــاس من الظلمــات إلــى النــور، ويهديهم من ضــلالات العتو والفساد، ويشفي القلوب من أرجاس الشرك، ويطهر العقول من أوضار الوثنية في جميع أشكالها، ويوطد دعائم العدل بين أبناء البشرية في أرجاء الأرض.

حتــى إذا بلــغ الركــب المبــارك الأشــرف منــازل بني ســالم بن عــوف، وهي من قباء علــى مرمى النظر، كانت الشــمس قد توسطت كبد السماء، وهي ترسل أشعتها على الركب في سيره الذي كانت الدنيا تســير به ومعه ســيرًا تحفــه الحفاوة البالغة، وتزجيــه فخامــة التعظيــم والإجــلال، والنظــر إلى المســتقبل المشرق بنور النصر المبين.

ونزل رســول الله ﷺ في بطن الوادي، وادي رانوناء، يؤم مســجد (غبيب) وهو مسجد بني سالم بن عوف متوجهًا إلى الله بقلبه، ليقف بين يديه شــكّارًا لنعمه وفواضله، فــي أول نفحة من نفحات الامتنان

الإلهـي في الهجرة المباركة، تلك هـي نفحة التوفيق لأداء صلاة أول جمعـة يصليها رسـول الله ﷺ بجمـوع أصحابه علانية في الإسـلام بعـد النبوة، والصلاة صلة الأرض بالسـماء، وصلة العبودية الخالصة بالوحدانية المفردة لله بالربوبية والتعبد له وحده تعبدًا خالصًا.

وأذن مـؤذن الإسـلام للصـلاة، وارتفـع النـداء، الله أكبر، الله أكبـر، وأصغـت الدنيا إلى هذا النداء، تسـمعه بآذانهـا وقلوبها، وهو غريب على مسـامعها، ولكنها تذوقت حلاوته، واستطعمت ذوقه، وعرفت أنه رسـالة من السـماء إلى الأرض، وأنه حق، وأنها منذ سماعها هذا النداء يجب عليها أن تخلع عنها جلابيب التعبد لغير الله تعالى، الذي بعث إليها رسـولًا هاديًا، يدعوها إلى التحرر في عقيدتها، وعيشها، وتفكيرها وتعبدها، ونظم حياتها.

وخطب رسـول الله ﷺ النـاس، يعظهم ويرشـدهم ويعلمهم، فقـال فيما وعظ، وهدى، وأرشـد فأوعى، وعلـم ونصح: «أحبوا الله مـن كل قلوبكـم» والحب غاية التعبد المتحـرر من الغيَر، قال السـهيلي فـي روضـه تعليقًـا على قولـه ﷺ: «أحبـوا الله من كل قلوبكم» يريد أن يسـتغرق حب الله جميع أجـزاء القلب، فيكون ذكره وعمله خارجًا من قلبه خالصًا له، وأمَّ رسـول الله ﷺ كل مَن حضره من المسـلمين، وشـهد معه هذه المنة الفريدة في سـجل التاريـخ، وصلـى بهـم، وارتفـع ﷺ بعـد الصلاة علـى رحله يؤم المدينة المنورة، وهي في لهفة الانتظار.

وفود الأنصار تطلب من رسول الله ﷺ أن ينزل في بيوتهم:

فأتته وفود بني سالم بن عوف في عددهم وعددهم وأسلحتهم ومظاهر قوتهم يقدمهم عتبان بن مالك، وعباس بن عبادة بن نضلة، فقالوا: يا رسول الله، أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة، فقال لهم ﷺ: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة» وكانوا قد أخذوا بزمام ناقته، فسمعوا وأطاعوا، وخلُّوا سبيلها، فانطلقت تحفُّ بها القلوب والأرواح، حتى إذا وازنت دار بني بياضة[1]، تلقته جموعهم في مظهر قوتهم وصادق حبهم وعظيم وفائهم، يتقدمهم زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال من زعمائهم، فأخذوا بزمام ناقته فقالوا: يا رسول الله، هلمَّ إلى العدد والعدّة والمنعة، فقال لهم ﷺ: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلُّوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا مرت بدار بني ساعدة تلقته حشودهم، يتقدمهم سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو في رجال من أشرافهم وأخذوا بزمام ناقته وقالوا: يا رسول الله، هلم إلى العدد والعدة والمنعة، فقال ﷺ: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج تلقته رجالاتهم في مظاهر قوتهم، يتقدمهم سعد بن

(١) أي: وازتها وصارت أمامها. (المجلة)

الربيع، وخارجة بن زيد، وعبد الله بن رواحة في رجال من ساداتهم، فقالوا وقد أخذوا بزمام ناقته: يا رسول الله، هلم إلى العدد والعدة والمنعة، فقال ﷺ: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها.

وانطلقت حتى إذا مرّت بدار بني عدي بن النجار -وهم أخواله؛ أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم- فتلقته جحافلهم في أهبة القوة المسلحة، يتقدمهم سليط بن قيس، وأبو سليط أُسيرة بن أبي خارجة في رجال من رءوس بني عدى بن النجار، فقالوا يا رسول الله، هلم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة، فقال ﷺ: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلُّوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت في مكان مسجده ﷺ وهو يومئذ مربد - أي بيدر تنشف فيه التمور والثمار، كالجرين والجرن للحنطة - مملوك لغلامين يتيمين من بني النجار، وهما في حِجْر معاذ بن عفراء، وقيل كانا في حجر أسعد بن زرارة، وهذا أثبت لأنه في البخاري وغيره، وفي الإصابة ويمكن الجمع بأنهما تحت حجْرهما معًا، وحكى الزبير بن بكار أنهما كانا في حجْر أبي أيوب الأنصاري وهما سهل وسهيل ابني عمرو، ثم وثبت القصواء ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل، فسارت قليلًا وهو ﷺ واضع لها زمامها لا يكفها ولا يوجهها، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تلحلحت

أي ثبتت – وأرزمت – أي رغت ورجَّعت في صوتها، وفي رواية: ورزمت بدون همزة– أي أقامت في مكانها من كلال وإعياء وهذا مناسب لرواية تلحلحت، وأما أرزمت بالهمزة فهو مناسب لرواية تحلحلت، فالتناسب يقتضي أن تكون العبارة، تلحلحت ورزمت، أو تحلحلت وأرزمت، وفي العبارة وألقت بجرانها، والجران العنق، وهذا يناسب أن تكون العبارة تلحلحت ورزمت أي ثبتت في مكانها لما أصابها من إعياء وكلال من وعثاء السفر وطول الرحلة ومشقة الطريق، ووصولها إلى نهاية ما أُمرت به.

قال السهيلي: وفي غير هذه السيرة – أي سيرة ابن إسحاق – أنها لما ألقت بجرانها في دار بني النجار جعل رجل من بني سلمة وهو جبار بن صخر ينخسها رجاء أن تقوم فتبرك في دار بني سلمة، فلم تفعل.

فنزل عنها رسول الله ﷺ، فاحتمل أبو أيوب رَحْله فوضعه في بيته ونزل عليه رسول الله ﷺ، وسأل عن المربد، لمن؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه فاتخذه مسجدًا.

وفي حديث عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عويم الساعدي، قال بعد أن سمع القوم صرخة اليهودي، وهو يخبر بمقدم النبي ﷺ ومرافقيه: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ، وهو في

ظل نخلة، ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وتزاحم الناس على رسـول الله ﷺ وما يعرفونه من أبي بكر، حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر رضي الله عنـه فأظله بردائـه، فعرفناه بذلك، ونزل رسـول الله ﷺ على كُلْثـوم بـن هُـدْم، وكان إذا خرج من بيت كلثـوم جلس للناس في بيت سعد بن خيثمة وذلك أن سعدًا كان عزبًا لا أهل له.

حب عارم وفرحة غامرة على الاستقبال الودود:

أخـرج الإمام أحمد في المسـند مـن حديث ثابـت البُناني عن أنس بن مالك قال: إني لأسـعى في الغلمان، يقولون: جاء محمد، فأسـعى ولا أرى شـيئًا، ثـم يقولون: جـاء محمد فأسـعى ولا أرى شـيئًا، حتى جاء رسـول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر فَكمِنا في بعض خراب المدينة، ثـم بعثا رجلًا من أهل البادية، يؤذن بهما الأنصار فاستقبلهما زهاء خمس مئة من الأنصار حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهـم، فخرج أهل المدينة حتى إن العواتق - جمعٌ مفرده عاتق - أي الشـواب الحرائر الكرائم أول مـا يدركن قال ابن الأعرابي: إنما سـميت عاتقًا لأنها عُتقت من الصبـا وبلغت أن تدّرع - فوق البيوت يتراءينه، يقلن: أيهم هو؟ فما رأينا منظرًا شـبيهًا به - أي بهذا المنظر في الشوق واللهفة للنظر إلى رسول الله ﷺ، وعظمة

استقباله المحفوف بالحب الهامس من العذارى والمخدرات، وكرائم الأحرار في حفاوة بالغة تفوق الوصف، وتعجز الأقلام عن التعبير عنها. وفي حديث البراء بن عازب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما من رواية الشيخين في صحيحيهما: وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم، يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر، جاء محمد، الله أكبر، جاء رسول الله.

وعند البيهقي من حديث ابن عائشة قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان يقلن :ـ

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

التماس حكمة هذا الرد الحكيم الموفق:

وفي حديث أنس من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما دخلها جاء الأنصار برجالها ونسائها فقالوا: إلينا يا رسول الله، فقال ﷺ: «دعوا الناقة فإنها مأمورة» وعند موسى بن عقبة كما ذكره صاحب (البداية): وكلما مرّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار دعوه إلى المنزل، فيقول ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة، فإنما أنزل حيث أنزلني الله» قال ابن المنير – كما نقله الزرقاني – الحكمة البالغة في إحالة الأمر على الناقة أن يكون تخصيصه ﷺ لمن خصّه الله بنزوله

عنده آية معجزة تطيب بها النفوس، وتذهب معها المنافسة، ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئًا.

وهكذا سارت القصواء أو الجدعاء مأمورة بإذن الله حتى بركت على باب أبي أيوب كما في هذا الحديث، فخرجت جوارٍ – أي فتيات صغيرات من بنات الأنصار، ثم من بني النجار يضربن بالدفوف وهن يقلن:

نحن جَوارٍ من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فخرج إليهن رسول الله ﷺ، وقال لهن: «أتحبونني» فقلن إي والله يا رسول الله، فقال ﷺ: «وأنا والله أحبكم، وأنا والله أحبكم، وأنا والله أحبكم» قال ابن كثير: هذا حديث غريب، لم يروه من هذا الوجه أحد من أصحاب السنن، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه كما يُروى.

توضيح وتعليق

هذا الحديث أدمج حوادث رحلة الهجرة دون تسلسل لها حسب وقوعها، وذكر ما ذكر منها وثبًا، وألحق آخرها بأولها، وترك في البين منها أحداثًا، ذكرنا منها أهمها في مناسباتها.

تحقيق رواية إرداف الصديق خلف رسول الله ﷺ في طريق الهجرة:

وفي قوله: فأقبل رسول الله ﷺ وهو مردف أبا بكر احتمال أن هذا الإرداف كان على ناقة واحدة لتأخر بعض ظهرهما في

العَـرْج(٢)، ويحتمـل أنه كان على ناقتين، وكان النبي ﷺ سـابقًا بناقته، وأبو بكر خلفه بناقته. وقد شرح الزرقاني قول القسطلاني فـي (المواهـب): وروى أنس بن مالك أنه ﷺ أقبـل إلى المدينة وهو مردف أبا بكر على الاحتمال الأول، فقال عقيب قوله: (وهو مـردف أبا بكـر): خلفه على الراحلـة التي هو عليهـا إكرامًا له، وإلا فقـد كان لـه راحلة، ثم قـال الزرقاني: وفي فتـح الباري، قال الـداودي: يحتمـل أنه مرتدف خلفه على راحلتـه، وهو الاحتمال الأول، ويحتمـل أنه يـكون علـى راحلة أخـرى؛ قـال الله تعالى: ﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (الأنفال: ٩) أي يتلو بعضهم بعضًـا، ثم قال صاحـب الفتح: ورجح ابن التيـن الأول، وقال: لا يصـح الثانـي؛ لأنـه يلزم منه أن يمشـي أبو بكر بين يدي رسـول الله ﷺ: وقـد غلَّـط صاحبُ الفتـح ابنَ التين فـي تصويره لمعنى الاحتمال الثانـي وترتيبه عليه ما لا يترتب، فقال: إنما يلزم ذلك لو كان الخبر جاء بالعكس، كأن يقول: والنبي ﷺ مرتدف خلف أبـي بكـر، أما ولفظه: وهو مـردف أبا بكر فلا، فـكلام ابن التين حقيق بالتوهيم والتوهين، واسـتدل صاحـب الفتح على ذلك بما جـاء في حديث أنس عند البخاري من قوله: فكأني أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته، وأبو بكر ردفه.

---

(٢) قرية على ثلاثة أميال من المدينة بطريق مكة. (المجلة)

ذكر ابن سعد في الطبقات من حديث حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان رديف رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، وظاهر هذا أن الإرداف كان في رحلة الهجرة كلها منذ خروجهم من الغار إلى أن دخلوا المدينة المنورة، ويؤيد ذلك ما جاء في حديث أبي وهب مولى أبي هريرة من قول أبي وهب: ركب رسول الله ﷺ وراء أبي بكر ناقته، ولكنه يخالفه في هيئة الإرداف؛ لأن حديث ثابت عن أنس جعل الصديق رديف رسول الله ﷺ، على معنى أنه كان راكبًا وراء رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ متقدمًا عليه، أما حديث أبي وهب فقد جعل رسول الله ﷺ رديف أبي بكر، على معنى أن الصديق كان على مقدم الناقة وكان رسول الله ﷺ راكبًا وراءه.

وهذا كلام مشكل مناقض لحديث البخاري في الهجرة برواية عائشة رضي الله عنها الذي ذكر فيه أن النبي ﷺ أخذ إحدى راحلتين كان الصديق رضي الله عنه اشتراهما وأعدهما لرحلة هجرته، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ أخذ هذه الراحلة بثمنها الذي اشتراها به أبو بكر وأنه قال لأبي بكر: «لا أركب راحلة ليست لي» أي في رحلة الهجرة لتكون هجرته ﷺ كلها خالصة لله ليس لأحد من الخلق فيها شيء، كما جاء في الحديث أن دليلهما جاءهما - كما واعداه - صبح ثالثة من دخولهما غار ثور براحلتيهما وبعير

له، وأن أبا بكر رضي الله عنه أردف مولاه عامر بن فهيرة لخدمتهما في سفرهما، فكيف يصح أن أبا بكر كان رديف رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة كما في حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس؟! وكيف يصح ما جاء في حديث أبي وهب مولى أبي هريرة من أن النبي ﷺ كان راكبًا وراء أبي بكر ناقته.

ولعل رواية أبي وهب مولى أبي هريرة أقرب إلى التأويل، بأن هذا الوضع الذي ذكرته هذه الرواية كان حينما قرب ركب الهجرة من المدينة بدليل ما ذكره ابن هشام أن الركب لما وصل في طريقه إلى (العرج) أبطأ عليهم بعض ظهرهم، ولعل هذا البعض هو ناقة أبي بكر، ويكون مولاه عامر بن فهيرة هو الذي تأخر بناقته لموجب اقتضى ذلك وكان الموقف لا يحتمل الانتظار، فأركب النبي ﷺ صاحبه معه على راحلته وكانا قد قربا من المدينة، وكون النبي ﷺ هو الذي كان راكبًا وراء أبي بكر وضع اقتضاه الموقف.

فقد ورد أن النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «أَلْهِ الناس عني» وهذا الإلهاء للناس عن رسول الله ﷺ يكون أبلغ في تحقيق هدفه إذا كان النبي ﷺ راكبًا وراء أبي بكر ويكون أبو بكر على مقدم الناقة لمواجهة الناس وشغلهم عن رسول الله ﷺ؛ لأن اهتمام الناس وأحاديثهم ومساءلاتهم إنما تتجه إلى مَن يكون بيده زمام الراحلة.

ويترجح هذا بأن الصديق -رضي الله عنه- كان إذا سئل فقيل له: مَن هذا معك؟ قال: هذا يهديني الطريق، يريد طريق الدين والخير والإيمان، ويفهم الناس من هداية الطريق، الطريق الحسي، وهذا من معاريض الكلام ولطائف التورية.

وعند البيهقي أيضًا من حديث أنس من طريق ثمامة قال: مر النبي ﷺ بحي من بني النجار، وإذا جوار يضربن بالدفوف، يقلن:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فقال رسول الله ﷺ: «يعلم الله أن قلبي يحبكم» ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، عن عيسى بن يونس، وقال ابن كثير في البداية: وفي صحيح البخاري عن معمر، عن عبد الوارث، عن عبد العزيز - بن صهيب - عن أنس، قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين - حسبت أنه قال من عرس - فقام النبي ﷺ ممثلًا -أي انتصب قائمًا- فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إلي» قالها ثلاث مرات.

وأخرج الإمام أحمد وابن سعد في الطبقات من طريق عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال: أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يُعرف، ورسول الله ﷺ شاب لا يُعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول أبو بكر: هذا الرجل

يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنما يهديه الطريق - أي طريق السير في رحلته الحسية - وإنما يعني أبو بكر سبيل الخير - أي طريق الإيمان والهدى والنور - فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال أبو بكر: يا نبي الله هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اصرعه» فصرعته فرسه، ثم قامت تحمحم، ثم قال - أي هذا الفارس -: مُرني يا نبي الله بما شئت، فقال له النبي ﷺ: «قف مكانك، ولا تتركن أحدًا يلحق بنا» فكان أول النهار جاهدًا على رسول الله ﷺ وكان آخر النهار مَسْلَحة له. قال - أي أنس - فنزل رسول الله ﷺ جانب الحرة، ثم بعث إلى الأنصار فجاءوا، فسلّموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعَين، فركب رسول الله ﷺ وأبو بكر، وحف الأنصار حولهما بالسلاح، وقيل في المدينة: جاء نبي الله ﷺ، فاستشرفوا نبي الله ﷺ ينظرون إليه ويقولون: جاء نبي الله، فأقبل يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع التي يخترف فيها، فجاء وهي معه، وسمع من نبي الله ﷺ، ورجع إلى أهله، وقال نبي الله: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله هذه داري، وهذا بابي، قال النبي ﷺ: «فانطلق فهيئ لنا مقيلا» فذهب فهيأ، ثم جاء فقال: يا رسول الله، قد هيأت مقيلًا، قوما على بركة الله فقيلا.

وفـي حديث أبـي التيّاح يزيد بن حميـد الضُّبَعيّ عن أنس عند البخاري قال : لما قدم رسـول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة في حي يُقال لهم بنو عمرو بن عوف ، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرســل إلى ملأ بني النجار فجاءوا متقلدي ســيوفهم ، قال أنس : وكأني أنظر إلى رسـول الله ﷺ على راحلتـه وأبو بكر ردفه ، وملأ بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب .

وهذا الحديث ظاهر فـي أن إرداف النبي ﷺ لصاحبه وصديقه أبـي بكر -رضي الله عنـه- وراءه على راحلتـه كان فيما بين قباء ومنـزل أبي أيوب ، وهو قريب المعنـى معقول الكون والوقوع ، لا يتعارض مع حديث الهجرة عند البخاري .

بيـان المقصـود من قول الروايـة: وأبو بكـر شيخ يُعرف ورسول الله شاب لا يُعرف:

وفي قول الحديث : وأبو بكر شيخ يُعْرف ، ورسول الله ﷺ شاب لا يُعْرف ، إنما يُقصد به تصوير ما يشـهده الناس بأبصارهم ، لا ما هو واقع الأمر في حقيقة الوجود التاريخي ، فالذي شهده الناس أن أبا بكر كان قد أسـرع إليه الشيب ، وكان -رضي الله عنه- ضعيف البدن ، كما وصفته ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فقالت فيمـا رواه أبـو عمر بـن عبد البر فـي الاسـتيعاب : وكان أبو بكر رجـلًا نحيفًا ، أبيض ، خفيف العارضين ، أجنأ لا يستمسـك ، أزرته

تسترخي عن حقويه، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عاري الأشاجع.

فمَن يشهده -رضي الله عنه- بداهة وهو بهذه الصفة يضعه في مصاف الشيوخ، الذين فارقوا فتاء الشباب، وفي حديث البخاري عن أنس: لم يكن في الذين هاجروا أشمط غير أبي بكر - والشمط اختلاط الشيب بسواد الشباب.

وكان النبي ﷺ قوي البنية، مفتول العضل، سوي الأعضاء، مستقيم القامة، متماسك البدن مع عدم إسراع الشيب إليه، حتى قيل في شمائله: إنه لم يشب منه ﷺ إلا بعض شعرات في رأسه ولحيته الشريفتين، يقول مَن يراه بديهة وهو ﷺ في غضارة مخبره، ونضارة مظهره إنه في عنفوان الشباب وفتاء السن، مع أن واقع الأمر أن النبي ﷺ كان أكبر وأسن من أبي بكر رضي الله عنه، والمعروف المتعالم في روايات التاريخ أن أبا بكر -رضي الله عنه- استكمل بمدة خلافته بعد النبي ﷺ سن النبي ﷺ، وهي - على الصحيح - ثلاث وستون سنة، وكان النبي ﷺ يكبر أبا بكر بسنتين وأشهر.

وأما ما روي عن يزيد الأصم أنه ﷺ قال لأبي بكر: أينا أسن أنا أو أنت؟ فقال أبو بكر: أنت أكرم يا رسول الله مني وأكبر، وأنا أسن منك، فهو كما قال أبو عمر بن عبد البر، مرسل، ولا أظنه

إلا وهمًا، قال ابن حجر: وهو كما ظن، وإنما يُعرف هذا - أي السؤال والجواب - للعباس بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ، وأما أبو بكر ففي مسلم عن معاوية أنه عاش ثلاثا وستين سنة، وعاش بعد النبي ﷺ سنتين وأشهرًا، فيلزم على الصحيح في سنه ﷺ أن أبا بكر أصغر من رسول الله ﷺ بأكثر من سنتين، قال ابن عبد البر في الاستيعاب: ولا يختلفون أن سنه انتهت إلى حين وفاته ثلاثًا وستين سنة، وأنه -رضي الله عنه- استوفى بخلافته بعد رسول الله ﷺ سن رسول الله ﷺ.

قال ابن حجر في الإصابة: وأخرج ابن عبد البر من حديث عائشة رضي الله عنها: تذاكر رسول الله ﷺ وأبو بكر ميلادهما عندي، فكان النبي ﷺ أكبر، على أنه جاء في حديث عويم بن ساعدة قوله: ومعه أبو بكر في مثل سنه.

وفي قوله: فيلقى الرجل فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول أبو بكر: هذا رجل يهديني الطريق، تورية لطيفة دقيقة شفافة، تدل على حضور البديهة عند الصديق رضي الله عنه، وتنضح عن رسوخ تفكيره وقوة ثباته عند مفاجأة الأحداث، وهو -رضي الله عنه- قد كان في موقف من أشد مواقف الشدائد والأزمات التي تمتحن فيها الرجولية، وفي هذه التورية من معاريض الكلام ما يغني عن الكذب، ويخرج بالموقف عن مضايق

الحرج، ومآزق الصراحة الموبقة، وهو منهج أهل البراعة البيانية، والفصاحة اللسانية، وشفافية المدارك العقلية.

وقد ذكر ابن سعد في الطبقات أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «ألْهِ عني الناس» أي اشغلهم عن النظر إليَّ والتفكير في أمري؛ لأن قريشًا لما غاظها نجاة النبي ﷺ قامت قيامتها وهاجت بلابلها، ولم تترك ناحية أو طريقًا إلا بعثت إليه زبانيتها وشياطينها وأدلاءها، وقائفيها، ليعلموا لها علم رسول الله ﷺ، وأية طريق سلك في خروجه من مكة، وضاعفت في سبيل ذلك المنح والعطايا والأجعال، وكان الطمع في جوائزها قد استبد بكثير من ذوي النفوس المريضة بحب الدنيا، فانتشروا في الأرض يبحثون، ويمنون أنفسهم بأكاذيب الأماني ليحصلوا على جائزة فجور الكفر المغيظ المحنق، فأراد النبي ﷺ أن يشغل صاحبه وصديقه الناس عنه، ووُفِّق الصديق إلى هذا الأسلوب حين كان يُسأل عن النبي ﷺ: من هذا الرجل معك، أو بين يديك، وهو أسلوب بارع في باب البلاغة العربية، يصرف السائل عن التفكير في غير ما قيل له، فكانت هذه التورية مَسلَحة دفعت عن النبي ﷺ وصاحبه ما كانا يخشيانه، وكانت من جند الله التي أيد بها رسوله ﷺ.

وفي قوله: فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم إشارة إلى قصة سراقة بن مالك الجعشمي الذي تبعهما طمعًا في جائزة

قريـش، فوقع له ما وقع معجـزة للنبي ﷺ، وقد ذكرنا قصته فيما سـبق، وهي قصـة وقعت قبل الوصـول إلى المدينـة بزمن طويل، ويشبه أن تكون في أول أيام المسير إلى المدينة أو بعده بقليل.

وفي قوله: فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام إشارة إلى قصة إسلام عبد الله بن سلام وكان اسمه الحصين، فغير رسول الله ﷺ اسمه إلى عبد الله، وهو سيد من سادات اليهود وأشرافهم، وحبر من أحبارهم الذين يُرجع إليهم في علم التوراة وشروحها.

أول من أسلم من اليهود حبرهم عبد الله بن سلام وأهل بيته:

وقد ذكر ابن إسحاق قصته في سيرته، فقال: وكان من حديث عبد الله بن سـلام - كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسـلامه حين أسلم، وكان حبرًا عالمًا - قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسـمه وزمانه الذي كنّا نتوكف له[٣]، فكنت مُسِرًا لذلك، صامتًا عليه، حتى قدم رسـول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء في بنـي عمـرو بن عـوف أقبل رجل حتـى أخبر بقدومه وأنـا في رأس نخلة أعمل فيها، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسـة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرتُ، فقالت لي عمتي حين سـمعت تكبيري: خيبك الله، والله لو كنت سـمعت بموسـى بن عمـران قادمًا مـا زدت، فقلت لها: أي عمة، هو والله أخو موسـى

(٣) نتوكف: نترقب ونتوقع. (المجلة)

بــن عمران، وعلــى دينه بُعث بما بُعث بــه، فقالت: أي ابن أخي، أهــو النبي كنا نخبر أنه يُبعث مع نفس الســاعة؟ فقلت لها: نعم، فقالــت: فــذاك إذن، ثــم خرجــتُ إلى رســول الله ﷺ فأســلمتُ، ورجعتُ إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا.

وكتمــت إســلامي من يهود، ثــم جئت رســول الله ﷺ، فقلت لــه: يا رســول الله، إن يهود قــوم بُهْت وإني أحــب أن تدخلني في بعض بيوتك، وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنــا فيهم، قبــل أن يعلموا بإِســلامي فإِنهم إن علموا بــه بهتوني، وعابوني، فأدخلني رســول الله ﷺ في بعــض بيوته، ودخلوا عليه فكلّموه وســاءلوه ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن ســلام فيكم؟ قالــوا: ســيدنا، وابن ســيدنا، وحبرنــا وعالمنا، فلمــا فرغوا من قولهم خرجتُ عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باســمه وصفته، فإِني أشــهد أنه رسول الله ﷺ، وأومن بــه وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثــم وقعوا بي، فقلت لرســول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهت، أهل غدر وكــذب وفجور، فأظهرت إســلامي وإســلام أهل بيتي، وأســلمت عمتي خالدة بنت الحارث، فحســن إسلامها. وقد ذكرها الحافظ ابن حجر باســم خلدة أو خالدة بنت الحــارث، واقتصر على رواية

ابن هشام في مختصر سيرة ابن إسحاق.

قال السهيلي في (الروض): وخالدة بنت الحارث قد ذكر إسلامها، وهي مما أغفله أبو عمر في كتاب الصحابة، وقد استدركناها عليه في جملة الاستدراكات التي ألحقناها بكتابه.

وقصة إسلام عبد الله بن سلام – وهو في مكانته المرموقة عند قومه اليهود علمًا وفضلًا، وشرفًا في النسب والفضل، ورفعة الشأن – آية من آيات تأييد الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ في مطلع وصوله إلى المدينة المنورة، وقد كانت أول أثر من آثار الهجرة في نشر الدعوة، وسير الرسالة في طريقها إلى العقول والقلوب، وكانت أولى بشائر التوفيق للأنصار الذين يعرفون مكانة عبد الله بن سلام في قومه، وما له عندهم من قداسة واحترام، ويعرفون فضله فيهم، ويعرفون علمه بكتبهم في علم علمائهم وأحبارهم، مما ثبّت أقدامهم، وزادهم إيمانًا على إيمانهم؛ لأنها قصة بدأت بها معالم النصر لدعوة الإسلام الهادية منذ أول يوم وصل فيه رسول الله ﷺ إلى مشارف المدينة في قباء، وكان المسلمون من المهاجرين والأنصار مستغرقين في التفكير والحركة والعمل في غمرة الاستقبال الذي استقبل الأنصار به رسول الله ﷺ، وفرحتهم بوصوله إليهم، وانتهت هذه القصة التي نسجت خيوطها مقادير الغيب بما انتهت به من الخير في بيت أبي أيوب النجاري

الأنصاري أول منزل نزل به رسول الله ﷺ بأمر الله وتوفيقه، فكان لهذه القصة رجة زلزلت أقدام اليهود، وملأت قلوبهم بالتوجس من المستقبل والغيظ المحنق، وكشفت ما انطوت عليه بواطنهم من ظلمات البغي والحسد، وما كانوا يضمرونه بين جوانحهم من العداوة والبغضاء لهذه الدعوة المهدية الهادية، ومن الكيد لحامل أمانتها محمد ﷺ.

وكانت هذه القصة فرحة اشرأبت لها أعناق المؤمنين غبطة وبهجة، وارتفعت بها كلمتهم، كلمة الحق التي استكانت لها خنزاوته(٤) الغرور المسعور في نفس اليهود.

ولا شك أن دخول هذا الحبر العالم الجليل في ساحة الإسلام، هو وأهل بيته معه، وإسلام عمته خالدة بنت الحارث - كان أول ضربة إلهية قصمت ظهر الفجور اليهودي في حقدهم المظلم، وحسدهم الكظيم وغدرهم وخياناتهم وسوء مكرهم.

وقد كان نهج ابن سلام في كشف حقيقة الخبث اليهودي آية في التدبير المسدد المحكم الذي أعطى(٥) المجتمع الجديد في المدينة على اختلاف طوائفهم: من أغمار اليهود في مجتمعهم المغلف بالأسرار، وقد فوجئوا بركن من أركان يهوديتهم الحانقة

(٤) الخنزوانة: التكبر

(٥) مفعول (أعطى) هو كلمة (صورة) التي وضعنا عندها علامة النجمة. (المجلة)

على الحياة، ودعامة من أكبر دعائمها، وركيزة من أعظم ركائزها تطير عنهم بأجنحة الإيمان والهدى إلى أحضان دعوة محمد ﷺ، لتكشف خبايا نفوسهم، وتعلن أسرارهم التي يحيكونها ضد كل خير. ومن منافقين لمّا يستعلنوا بنفاقهم، ويظهروا نجيث ما يكتمون من فجور وكفر. ومن مشركين كانوا لا يزالون معتصمين بوثنيتهم المترهلة المتهاوية، ومن مؤمنين حدثاء الإيمان لم يرسخ الإيمان في قلوبهم، تميلهم أعاصير الأكاذيب هنا وهناك، وتلعب بهم فارغات الشبه التي يرمي بها أعداء الإسلام يمينًا وشمالًا. ومن جمهرة غامرة لهذا المجتمع بقوة إيمانها، ورسوخ يقينها من خُلص المؤمنين – صورةً فاضحة عن طبيعة خبث اليهود، وسوء ما تنطوي عليه قلوبهم وعقولهم من مكر سيئ وكيد أسود للإسلام والمسلمين، وما يضمرونه من عداوة لرسول الله ﷺ ولرسالته، وهم يعلمون أنها الحق من ربهم، عداوة امتزجت بدمائهم واستولت على مناحي تفكيرهم، مما نبه المجتمع المسلم إلى لؤم نحيزتهم(٦)، ليتقي في مستقبله معهم مزالق غدرهم وخياناتهم وفجور كفرهم، وشرورهم وإفسادهم –وهم مجبولون على الشر والإفساد، أينما حلوا أفرادًا وجماعات، وحيثما وجدوا من الأرض، لا يحيون ولا يعيشون في مجتمع إلا وهم متجلببون

(٦) النحيزة: الطبيعة. (المجلة)

بشعاره ودثاره- وخفيه وظاهره، وخطيره ودنيه، وقليله وكثيره. أنبأ بذلك عنهم تاريخهم، وتناثرت به أنباؤهم، وقد برهنت الأيام في مستقبل حياتهم مع الإسلام أنهم أخبث جرثومة الشرور والإفساد كما وصفهم حبرهم وعالمهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وقد سلبوه كل فضيلة عرفوها له، في علمه وفضله ومكانته؛ بعدما اعترفوا بأنه سيدهم وابن سيدهم، وعالمهم وابن عالمهم، فبهتوه وكذبوا عليه وزنوه بكل رذيلة(٧)، بعدما علموا بإسلامه، وكان قبل أن يكشف لهم أمر إسلامه قد وصفهم لرسول الله ﷺ بأنهم قوم بُهْت، أهل غدر وكذب وفجور.

فجور حيي بن أخطب أبي جهل اليهود:

وعند موسى بن عقبة عن الزهري: أن أبا ياسر بن أخطب – أخا حيي بن أخطب – حين قدم رسول الله ﷺ المدينة قدم إليه وسمع منه وحادثه ثم رجع إلى قومه فقال: يا قوم أطيعوني، فإن الله قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرون، فاتبعوه ولا تخالفوا، فانطلق أخوه حيي بن أخطب – وهو يومئذ سيد اليهود وهما من بني النضير – فجلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه ثم رجع إلى قومه وكان فيهم مطاعًا، فقال أتيتكم من عند رجل والله لا أزال له عدوًا أبدًا، فقال له أخوه أبو ياسر: يا ابن أم، أطعني في هذا الأمر واعصني فيما شئت

(٧) أزنوه: اتهموه. (المجلة)

بعده، لا تهلك، قال والله لا أطيعك أبدًا واستحوذ عليه الشيطان واتبعه قومه على رأيه.

رواية البخاري في إسلام عبد الله بن سلام:

وقد ساق البخاري قصة إسلام عبد الله بن سلام من طريق عبد العزيز بن صهيب، عن أنس، قال: فلما جاء النبي ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيَّ ما ليس فيَّ، فأرسل نبي الله ﷺ إلى اليهود، فدخلوا عليه فقال: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقًا، وأني جئتكم بحق فأسلموا» قالوا: ما نعلمه، قال رسول الله ﷺ: «فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال النبي ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم» قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، قال النبي ﷺ: «يا ابن سلام اخرج عليهم» فخرج فقال: يا معشر يهود اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ. وفي رواية أخرى: فلما خرج عليهم شهد شهادة الحق، فقالوا: شَرُّنا وابن شَرِّنا، وتنقصوه، فقال: يا رسول الله، هذا الذي كنت أخاف.

وروى الإمـام أحمد، والترمذي وابن ماجـه من طرق عن عوف الأعرابـي، عـن زرارة بن أبـي أوفى عن عبد الله بن سـلام قال: لما قدم رسـول الله ﷺ المدينة انجفل النـاس، فكنت في مَن انجفل، فلمـا تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، فكان أول شـيء سـمعته يقول: «أفشـوا السـلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

قال ابن كثير: ومقتضى هذا السـياق يقتضي أنه سـمع بالنبي ﷺ، ورآه أول قدومه حين أناخ بقباء في بني عمرو بن عوف، وأنه رآه واجتمـع به حيـن أناخ عند دار أبي أيوب عنـد ارتحاله من قباء إلى دار بني النجار، فلعله رآه أول ما رآه بقباء واجتمع به بعدما صار إلى دار بني النجار.

فخامة استقبال رسول الله ﷺ كانت غصة لليهود والمنافقين:

دخل رسـول الله ﷺ المدينة والفرحـة والبهجة يعمان أهلها: رجـالًا ونسـاء، شـيبًا وشـبانًا، فتيانًا وفتيـات، أغلمـة وأطفالًا. مخـدرات وعذارى، واسـتقبلت المدينة رسـول الله ﷺ اسـتقبالًا صبـت فيه كل ما تحـوي قلوب سـاكنيها الطاهرة مـن المؤمنين مـن حب طهور، وإجلال حفـي، وحفاوة بلغت المدى في التعظيم وفخامـة المنظـر، ونبالـة التوقير، ومظاهـر الاحترام، وشـارات القـوة، ورمـوز الفداء، مما أضفـى على المدينة كلهـا نورًا وهدى

وطهرًا، وكان غيظًا خانقًا لليهود، وجراثيم النفاق الذين غصّت حلاقيمهم بروعة هذا الاستقبال الفخم المفخّم، الذي أفقد أعداء الدعـوة في مجتمعها الجديد أدنى وأحط نوازع المروءة، وجللهم بأرذل وسائل المداراة والبغضاء وجوامع الحقد الحسود.

قال ابن كثير في شـواهد ذلك: وذكر موسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ مـر فـي طريقه بعبـد الله بن أُبَي بن سـلول وهو في بيت، فوقف رسـول الله ﷺ ينتظـر أن يدعوه إلى المنـزل - وهو يومئذ سـيد الخزرج في أنفسهم - فقال عبد الله بن أبي لرسول الله ﷺ: انظـر الذيـن دعوك فانزل عليهم، فذكر ذلك رسـول الله ﷺ لنفر من الأنصار، فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه: لقد مَنَّ الله بك علينا يا رسول الله، وإنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملكه علينا.

وَيْ!! أهكـذا يصنـع الحقـد بالنفـوس فيحيلهـا أشـباحًا من الانحطاط البشـري، والخلق الزري، فينسـيها آدميتها وينزل بها إلى هاوية الخسة، ولؤم النحيزة ودناءة الطبع؟

لقد نفث ابن أبي بن سـلول في كلمته المنحدرة من قلب كفور أضغاثَ أحقاده السوداء، وتعرى بها عن كل ذرة من ذرات المروءة التـي يتكلفهـا في مثل هـذا الموقف أراذل الناس، حيـاء أن تُذكر عنهم في سوء مراذلهم مثل هذه الرذيلة والمنقصة التي لم تعرفها قط أخلاق العرب.

ومضى عنه رسـول الله ﷺ بعد أن كشـف نجيثه[٨]، ليُنبذ في خربة الإهمال، وتركه للحسـرة تقطع نياط قلبه وللحقد الحسود يشوي بنار الأسى والخزي كبده، وهو يرى رسول الله ﷺ في ركبه المعظَّم يحفه الإجلال والإعظام، وأهل المدينة أوسـها وخزرجها مـن حوله يتزاحمـون بالمناكـب لمشـاهدته ووجوههـم طافحة بالبشـر والحب، وهم يهتفون: الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسـول الله، والعـذارى والمخدرات على الأجاجير والأسـطح[٩]، وخلف النوافذ يتنافسن لرؤيته ﷺ، والركب الميمون يمضي في طريقـه بين فجـاج المدينة، وكأنما تحولـت المدينة إلى بؤرة من النور، تمشـي مع الركب ميممة حيث تيمم القصواء ورسـول الله ﷺ فوقها، لا يثنيها عن اتجاه في سيرها.

(٨) النجيثـة: مـا أخـرج من تـراب البئـر. وقوله: «كشـف نجيثه» بمعنى: كشـف سره وحقيقة أمره. (المجلة)

(٩) الأجاجير: السطوح. مفردها أجار. (المجلة)

إشراق المدينة بحلوله ﷺ فيها

أخرج البخاري من حديث البراء بن عازب، قال: جاء النبي ﷺ إلى المدينة في الهجرة، فما رأيت أشد فرحًا منهم بشيء من النبي ﷺ، حتى سمعت النساء والصبيان والإماء يقولون: هذا رسول الله قد جاء، قد جاء.

وأخرج الترمذي وابن ماجه عن أنس بن مالك قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء. وأخرج ابن أبي خيثمة والدارمي عن أنس قال: شهدت يوم دخول النبي ﷺ المدينة، فلم أر يومًا أحسن منه ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه ﷺ المدينة.

وروى أبو داود عن أنس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابهم فرحًا بقدومه ﷺ. قال القسطلاني في المواهب بعد سياقه حديث أنس: وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير أي الأسطح - عند قدومه ﷺ يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

هذا الشعر أو هذا النشيد لم نعثر على اسم قائله ولا وجدناه منسوبًا لشاعر صغير أو كبير، بيد أنه شعر مشهور مُذاع على الألسنة وفي بطون الكتب والدواوين.

ومن غريب أمره أن سيرة ابن إسحاق التي بين أيدي الناس – باختصار وتهذيب عبد الملك بن هشام وهي العمدة في أحداث السيرة النبوية، وما يتصل بها من أشعار صحيحة أو منحولة مما بينه الباحثون، وفي طليعتهم ابن هشام – لم تورد هذه الأبيات، لا في استقبال النبي ﷺ في الهجرة، وهو قادم من مكة إلى المدينة، ولا في استقباله ﷺ وهو آيب من غزوة تبوك، وكل قد ذهب إليه طائفة من العلماء الباحثين والمؤلفين في أحداث السيرة النبوية.

وقد اختلف أئمة العلم في وقت إنشاد هذا الشعر عند استقبال النبي ﷺ لتحيته وإظهار الفرح والسرور بلقائه، هل كان ذلك عند تلقيه ﷺ مقدمه من مكة مهاجرًا إلى المدينة؟ فلما وصل إليها استُقبل بهذا الشعر إظهارًا للفرحة والسرور بوصوله إلى مهاجره ومستقره؟ وكان أهل المدينة عامة رجالًا ونساء في لهفة الشوق إليه ﷺ، وحنين الرغبة في مشاهدته، أو كان ذلك في قدومه من غزوة تبوك؟ وهي آخر غزوة وأعظمها عددًا وإخلاصًا وتمحيصًا غزاها ﷺ بنفسه قائدًا لجحافل جنده، وكانت امتحانًا للنفاق والمنافقين وضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض، كشف الله به عن سوء ما انطوى عليه باطنهم، وما قامت عليه حياتهم من الجبن والفرق والرعب، والكيد للإسلام والمسلمين والمكر برسول الله ﷺ، والإرجاف به وإشاعة السوء والأكاذيب، والتقول بالباطل،

ليكون في موقف المسلمين من إظهار البهجة والفرح برسول الله ﷺ، ووصوله آيبًا من هذه الغزوة منصورًا مؤيدًا بتوفيق الله وتأييده على ضد ما أرجف به المنافقون.

وقد جمع أطراف هذا الخلاف القسطلاني في (مواهبه) وشارحه الزرقاني، ونحن نسوق كلامهما ممزوجًا بعضه ببعض مقتصرين على بيان ما يحتاج إليه من بيان وتوضيح، ونرجح ما نراه راجحًا من أقوال الأئمة بما يظهر لنا من دلائل الترجيح وأمارات القبول.

والثنيات جمع ثنية، وهي في أصل اللغة ما ارتفع من الأرض، وهي الطريق في الجبل.

قال صاحب (المواهب) بعد أن ساق طرفًا من حديث البراء بن عازب عند البخاري وهو في الهجرة وحديثها قطعًا: وأشرقت المدينة بحلوله ﷺ فيها قادمًا إليها في هجرته من مكة، ومعه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وسرى السرور إلى القلوب، وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير - أي الأسطح - عند قدومه ﷺ يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

قال القسطلاني: إنشاد هذا الشعر عند قدومه ﷺ المدينة- أي في الهجرة - رواه البيهقي في الدلائل وأبو بكر المقري في (الشمائل) عن ابن عائشة، عبيد الله بن محمد بن حفص التيمي، روى له أبو داود والترمذي والنسائي، وهو من ذرية عائشة بنت طلحة، فلهذا قيل له: ابن عائشة، قال عنه الزرقاني: هو ثقة، ذكر عنه ابن أبي شيبة أنه أنفق على إخوانه أربع مئة ألف دينار، حتى التجأ إلى بيع سقف بيته، وهذا يدل على سخاء بالغ.

وذكر الطبري حديث ابن عائشة في (الرياض النضرة) عن أبي الفضل الجمحي، قال: سمعت ابن عائشة يقول: عن أبيه، فذكر الحديث، وقال المحب الطبري: أخرجه الحلواني، أبو علي الخلال، نزيل مكة، وهو ثقة حافظ على شرط الشيخين. قال الزرقاني: الشيخان لم يخرجا لابن عائشة، فلا يكون على شرطهما ولو صح الإسناد إليه، قلنا: لا يلزم من كون الشيخين لم يخرجا لابن عائشة ألا يكون حديثه على شرطهما.

قال البيهقي في الدلائل: أنبأنا أبو عمرو الأديب، قال: أنبأنا أبو بكر الإسماعيلي، قال: سمعت أبا خليفة يقول: سمعت ابن عائشة يقول: لما قدم عليه السلام المدينة جعل النساء والصبيان يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

قال القسطلاني: وسميت ثنية الوداع لأنه ﷺ ودَّعه بها بعض المقيمين بالمدينة في بعض أسفاره وهي غزوة تبوك، وقيل: لأنه ﷺ شيع بعض سراياه إليها وهي سرية مؤتة فودعه عندها، قال الزرقاني: وهذان يعطيان أن التسمية - أي تسمية الثنية بثنية الوداع - حادثة.

قلنا: وهو يعطي - أيضًا - أن نشيد: طلع البدر علينا، قيل بعد التسمية الحادثة، وهي قد حدثت بمقتضى صريح القول في سفره ﷺ إلى غزوة تبوك، أو قبل سرية مؤتة، وأين غزوة تبوك من القدوم في الهجرة وبينهما زهاء تسعة أعوام؛ لأن غزوة تبوك كانت في رجب من السنة التاسعة للهجرة، وأين سرية مؤتة، وهي قد كانت في السنة الثامنة من القدوم إلى المدينة في الهجرة فبينهما نحو ثمان سنين، وتبوك ومؤتة شاميتان بالنسبة للمدينة، ومعنى هذا أن إنشاد هذا الشعر لم يكن عند قدومه ﷺ من مكة إلى المدينة في الهجرة، وإنما كان بعد ذلك بزمن طويل، فكلام القسطلاني في بيان وجه تسمية الثنية بثنية الوداع إخبار عن أمر بغير سند، فهو غير مسلم؛ لأنه لم ينسبه إلى أحد من أهل العلم بالمواطن وأحداثها.

ثم قال القسطلاني: وقيل: إن تسميتها ثنية الوداع إنما كان لأن المسافر من المدينة كان يشيع إليها ويودع عندها قديمًا،

وصحح القاضي عياض هذا القول، وهو قول لا يخلو عن إبهام وغموض لأنه لم يتبين فيه إلى أية جهة كان السفر من المدينة الذي يشيع إليها المسافر أو يودعونه عند الثنية التي تسمى ثنية الوداع، فهو محتمل أن يكون سفرًا من المدينة إلى الشام، وهذا يوافق القولين السابقين من أن هذه الثنية التي سميت ثنية الوداع إنما كانت شامية بالنسبة للمدينة، والقادم إلى المدينة من مكة لا يمر بها ولا يراها.

ويحتمل أن السفر كان سفرًا من المدينة إلى جهة مكة، وحينئذ تكون الثنية مكية والقادم من مكة يمر بها، وتكون هي المقصودة في شعر: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع، وهي التي استقبل عندها رسول الله ﷺ وهو قادم من مكة إلى المدينة في الهجرة.

وتصحيح القاضي عياض لهذا القول الأخير في وجه التسمية بثنية الوداع إنما قصد به إفادة أن التسمية قديمة معهودة عند أهل المدينة، كما استدل عليه القاضي بقول نساء الأنصار حين قدومه ﷺ.

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع

وليس في قول عياض تعرض لكون الثنية المسماة قديمًا ثنية الوداع شامية أو مكية، وعندئذ يبقى الوضع على الاحتمال لأن تكون الثنية شامية، ويكون إنشاد هذا الشعر حين قدم الرسول ﷺ

آيبًا من غزوة تبوك، ولأن تكون الثنية مكية ويكون إنشاد هذا الشعر حين قدم رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة في الهجرة.

وقد ذكر ابن بطال ما يتفق مع القول بقِدَم التسمية، فقال: إنما سميت بثنية الوداع لأنهم كانوا يشيعون الحاج والغزاة إليها ويودعونهم عندها، وإليها كانوا يخرجون عند التلقي.

وهذا كلام وإن كان يفيد قِدم التسمية، ولكنه مبهم، لا يُعيِّن أين كانت هذه الثنية التي كانوا يشيعون الحاج والغزاة إليها ويودعونهم عندها، هل كانت شامية المدينة أو مكيتها، وهذا هو المقصود بتحقيق إنشاد هذا الشعر متى كان؟ وأين كان؟.

قال ابن العراقي: وهذا كله مردود، ففي صحيح البخاري، وسنن أبي داود، والترمذي عن السائب بن يزيد، قال: لما قدم النبي ﷺ من تبوك خرج الناس يتلقونه من ثنية الوداع، وهذا صريح في أنها من جهة الشام، قال الزرقاني: فظهر منه رد كلام ابن بطال، وأثر ابن عائشة.

قلت: لا أدري كيف يظهر من كلام ابن العراقي وحديث السائب بن يزيد رد كلام ابن بطال، وهو لم يتعرض قط لكون الثنية شامية أو مكية، وإنما مفاد كلامه أن هذه الثنية كانت معروفة التسمية بثنية الوداع لأنها كانت موطن التشييع للحاج والغزاة والوداع لهم، فهل الحاج والغزاة الذين كانوا يشيعون ويودعون عندها

كانـوا فقط متوجهين إلى الشـام، حتى لا تكون ثنية الوداع إلا من جهة الشام؟

ومـا الذي يمنع مـن أن تكون هناك ثنية وداع شـامية، وأخرى مكيـة، فحاج مكة المتجهين إليها كانـوا يودعون عند الثنية التي من جهتها، وحاج الشـام أي السالكون طريق الشام كانوا يودعون عند الثنية التي كانت تقع شـامية المدينة، وحينئذ يكون رسـول الله ﷺ حيـن قـدم في ركب الهجـرة إلى المدينة قد مـرّ على ثنية الـوداع التي تقع في جهة مكة بالنسـبة إلـى المدينة، ومن ثَم كان إنشـاد هذا الشـعر تحية له ﷺ وفرحًا بقدومه في الهجرة من مكة إلـى المدينة، ولزم ذلك أن لا يظهر وجـه لكلام ابن العراقي الذي رد به كل ما قيل في أن ثنية الوداع التي جاءت في هذا الشعر مكية المدينة، يمر عليها القادم من مكة والذاهب إليها.

وحديث السـائب بن يزيد عند البخـاري والترمذي وأبي داود لا يـرد ما زعمـه ابن العراقي أنه مردود بـه، وكذلك لا يرد ما جاء فـي حديث ابن عائشـة عنـد البيهقي فـي الدلائـل، والمقري في الشـمائل؛ لأن أقصـى ما فـي حديث السـائب أن رسـول الله ﷺ لمـا قدم مـن تبوك خرج الناس يتلقونه من ثنيـة الوداع، وليس في هـذا الكلام ما يفيد نفي أن تكون هنـاك ثنية وداع أخرى من جهة مكة، كان يُتلقى عندها القادم من مكة إلى المدينة، ويودع عندها الذاهب من المدينة إلى مكة.

وقد استدل ابن العراقي على رد كلام ابن بطال بتوهيم والده الإمام عبد الرحيم شارح الترمذي لابن بطال في كلامه، فقال ابن العراقي: ولهذا لما نقل والدي رحمه الله في شرح الترمذي كلام ابن بطال قال: إنه وهم، وكلام ابن بطال إنما كان في ثنية الوداع التي كانت محطًا وملتقى لتشييع الحاج والغزاة إليها وتوديعهم وتلقيهم عندها، وليس فيه تعرض لكون الثنية المعروفة بهذا كانت من جهة الشام أو كانت من جهة مكة، فلا تصادم بين كلام ابن بطال وحديث السائب، فابن بطال لم ينف شيئًا أثبته حديث السائب، ولا أثبت شيئًا نفاه، فلا محل لتوهيمه في قول الإمام عبد الرحيم العراقي، ولا وجه لرده في كلام ابنه الولي العراقي.

وأما حديث ابن عائشة فهو وإن كان من جهة سنده معضلًا فإنه لا مانع من الاستئناس به، لا سيما أن الزرقاني قد وصف ابن عائشة بكونه ثقة، فإذا صح سند الحديث إلى ابن عائشة كان مأنسًا لمن يقول إنه كان من جهة مكة ثنية وداع مرّ بها رسول الله ﷺ وهو قادم في الهجرة من مكة إلى المدينة.

ومن أعجب العجب أن يقف الإمام الداودي شارح البخاري على نهاية طرف هذا الخلاف، فينكر أن تكون ثنية الوداع من جهة تبوك، وقد نقل ابن حجر في الفتح إنكار الداودي لكون ثنية الوداع من جهة تبوك، وقال: ثنية الوداع من جهة مكة لا من جهة

تبوك، بل هي في مقابلها كالمشـرق والمغرب، إلا أن تكون هناك ثنيـة أخرى فـي تلك الجهـة – أي جهة تبوك – غيـر أن ابن حجر غلط في قوله: وتبعه – أي الداودي – ابن القيم؛ لأن ابن القيم نص صراحـة في زاد المعاد – وهو الكتاب المعروف بالهدي النبوي – علـى أن ثنية الوداع مـن جهة تبوك، ووهَّم مَن قـال: إنها من جهة مكة، ولهذا قال القسـطلاني في (المواهب): وسبقه – أي الإمام عبـد الرحيم العراقي إلى التوهيم – ابـن القيم في الهدي النبوي، فقـال يرد على القائلين إن ثنية الوداع من جهة مكة، كما هو قول الـداودي –: هذا وهم مـن بعض الرواة؛ لأن ثنيـة الوداع من جهة الشـام، لا يراهـا القادم من مكـة، ولا يمر عليهـا إلا إذا توجه إلى الشـام، وإنما وقع ذلك – أي تلقيه ﷺ وإنشـاد هذا الشعر: طلع البدر علينا – عند قدومه من تبوك.

وابن القيم إنما ذكر تلقي أهل المدينة وخروج النساء والصبيان والولائد لرسـول الله ﷺ بنشيد: طلع البدر علينا، في رجوعه ﷺ مـن تبوك، ولم يذكر تلقيه ﷺ بإنشـاد هذا الشـعر في قدومه من مكة مهاجرًا إلى المدينة.

وعبارته في (الهدي) في آخر الكلام على غزوة تبوك وما اتصل بها هي قوله: فلما دنا رسـول الله ﷺ من المدينة – أي في رجوعه مـن تبوك – خرج الناس لتلقيه، وخرج النسـاء والصبيان والولائد يقلن:

طلـــع البـــدر علينــا مــن ثنيــات الــوداع
وجــب الشــكر علينـــا مـــــا دعــا لله داع

ثم قال: وبعض الرواة يَهِم في هذا، ويقول: إنما كان ذلك عند مقدمــه المدينة من مكة، وهو وهم ظاهر؛ لأن ثنية الوداع إنما هي من ناحية الشــام، لا يراها القادم من مكة، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام.

وقولــه: لأن ثنيــة الــوداع إنمــا هي من ناحية الشــام بأســلوب الحصر غير مسلم؛ إذ ما يمنع أن يكون هناك ثنيات وداع متعددة مــن جوانب المدينــة يكون بعضها من ناحية الشــام، وبعضها من ناحية مكة؟.

ولم يُعلم أن أحدًا نص على أن ثنيات الوداع خاصة بناحية الشام، والتعبير عنها يُشعر بأنها قديمة معروفة يشيع إليها ويودع عندها المســافرون من المدينة، ويُتلقى عندها القادمون إليها، والســفر من المدينة والقدوم إليها قد يكون من مكة وإليها، وقد يكون من الشام وإليها، وحينئذ ما يمنع أن يكون في كل ناحية ثنية أو ثنيات وداع عندها يكون وداع المسافرين وتلقي القادمين؟ وإذا جاز هذا فــلا مانع قط أن يكون النبي ﷺ تلقــاه أولًا أهل المدينة وهو قادم من مكة مهاجرًا إلى المدينة عند ثنية الوداع التي هي من جهة مكة بالفرحة وإنشــاد هذا الشعر العاطفي، تعبيرًا عن لهفة الشوق التي

كانت تعتلج في صدور الذين لم يسبق لهم مشاهدته ﷺ، وخاصة النساء والصبيان والولائد الذين تغلب عليهم عواطف الفرحة، فيعبرون عنها بالغناء، والترنم بإنشاد الشعر.

وتلقوه ﷺ - ثانيًا - وهو قادم من غزوة تبوك منصورًا مظفرًا مؤيدًا بتوفيق الله بالفرحة وإنشاد هذا الشعر الذي صار لديهم نشيدًا يعبرون به عن الفرحة والسرور، لا سيما أن هذه الغزوة العظيمة كثر فيها إرجاف المنافقين بالأكاذيب وإشاعات السوء على رسول الله ﷺ وأصحابه وجنده، فرجوعه محفوظًا برعاية الله، ورجوع جحافل جيشه مؤيدة بنصر الله تعالى، مما أغاظ المنافقين وأغصهم، وقد كانوا في جبنهم ينتفضون رعدة وفرقًا ورعبًا إذا ما سمعوا اسم بني الأصفر الذين خرج رسول الله ﷺ في هذه الغزوة لجهادهم، فلما رجع مكلل الجبين بالنصر والتأييد من الله أرجف به المنافقون ليفتنوا المؤمنين، الذين خرجوا لتلقيه وهو آيب إلى مدينته ترعاه عين الله ويحفه توفيقه.

قال الزرقاني: وأجاب السمهودي - أي عن توهيم بعض الرواة بأن كونها: أي ثنية الوداع شامي المدينة - لا يمنع كون هذه الأبيات أُنشدت عند الهجرة؛ لأنه ﷺ ركب ناقته وأرخى لها زمامها، وقال: دعوها فإنها مأمورة، ومر بدور الأنصار من بني ساعدة، ودورهم شامي المدينة، قرب ثنية الوداع، فلم يدخل

باطن المدينة إلا من تلك الناحية، فلا وهم.

قال الزرقاني: وهو جواب حسن، وإن كان شيخنا البابلي يستبعده، لأنه يلزم عليه أن يرجع ويمر على قباء ثانيًا، فلا بُعد فيه، ولو لزم ذلك، لإرخائه زمام الناقة، وقوله (إنها مأمورة).

وما استحسنه الزرقاني من جواب السمهودي فيه تمحل للخروج من الإشكال، وكان الأشبه أن يُقال بأن كون ثنيات الوداع شامي المدينة لا يمنع من أن تكون هناك ثنيات وداع مكي المدينة، وعندئذ يُقال: إن المقصود بثنيات الوداع، هي الثنيات التي يُستقبل عندها القادم، ويشيع ويودع عندها المسافر، سواء أكانت الثنيات شامية أو مكية، ومن ثَم يكون إنشاد هذا الشعر إنما كان أولاً عند قدوم النبي ﷺ من مكة مهاجرًا إلى المدينة، وكان ثانيًا عند مقدمه من غزوة تبوك.

وبهذا يندفع ما استبعده البابلي من لزوم رجوعه ومروره ثانيًا على قباء الذي أجاب عنه الزرقاني جوابًا ضعيفا لا يدفع الاستبعاد، على أن قول السمهودي في جوابه عن توهيم بعض الرواة: ومر ﷺ بدور الأنصار من بني ساعدة، ودارهم شامي المدينة وقرب ثنية الوداع، فيه ما يدل على أنه ﷺ سار وهو مُرخ زمام الناقة لا يكفها ولا يوجهها حتى بلغ طرف المدينة من جهة الشام ليستوعب بمروره جميع دور الأنصار تكريمًا لسائرهم حتى لا

يحيك في صدر أهل دار منهم شيء، وكون دار بني ساعدة قريبة من ثنية الوداع يشير إلى أن تلقي أهل المدينة له ﷺ كان من هذه الجهة التي بها ثنية الوداع.

ولما كان التلقي والاستقبال غامرًا كثير الزحام اجتمع فيه إلى الرجال النساء والصبيان والولائد وهن ينشدن هذا الشعر ترحيبًا بمقدمه ﷺ، وإظهارًا للفرحة بحلوله بينهم، ولا يلزم من ذلك الرجوع ثانيًا إلى قباء، بل المعقول أن السير كان إلى باطن المدينة من طرفها الشامي، حيث يبلغ ﷺ مستقره ومنزله الذي أنزله الله فيه، وهو مربد سهل وسهيل الذي صار مسجدَه الأشرف، قرب دار أبي أيوب الأنصاري النجاري رضي الله عنه.

وهذا الذي ذهبنا إليه ورجحناه في دفع توهيم بعض الرواة هو ما صار إليه ابن العراقي، قال صاحب المواهب وشارحه: لكن قال ابن العراقي - أيضًا - ويُحتمل في دفع التوهيم الذي ذهب إليه والده وذهب إليه ابن القيم، أن تكون الثنية التي في كل جهة يصل إليها المشيعون- يسمونها ثنية الوداع.

قال صاحب الخميس: يشبه أن يكون هذا هو الحق، ويؤيده جمع الثنيات إذ لو كان المراد الثنية التي من جهة الشام لم تُجمع، ولا مانع من تعدد وقوع هذا الشعر مرة عند الهجرة،

ومرة عند قومه من تبوك، فلا ينافي ما في البخاري وغيره، ولا ما قاله ابن القيم.

وهـذا كلام جيـد، سـديد، موفق، يحـل الإشـكال، ويحقق الغـرض المقصـود ويؤيد المشـهور من الروايـات، ويدفع عنها التصادم والتضاد، والله ولي التوفيق.

أين نزل رسول الله ﷺ بالمدينة قبل بناء بيوته

في حديث البراء بن عازب عن أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– عند البخاري في الهجرة قال الصديق: فقدمنا ليلًا، فتنازعه القوم، أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله ﷺ: «أنزل على بني النجار، أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك» قال ابن كثير: وهذا – والله أعلم – إما أن يكون يوم قدومه إلى قباء فيكون حال وصوله إلى قرب المدينة كان في حر الظهيرة، وأقام تحت تلك النخلة، ثم سار بالمسلمين فنزل قباء ليلًا، وأنه أطلق على ما بعد الزوال ليلًا، فإن العشي من الزوال – أي يبتدئ من زوال الشمس عن كبد السماء، وميلها للغروب – وإما أن يكون المراد بذلك لما رحل من قباء، فسار فما انتهى إلى بني النجار إلا عشاء.

وهذا الترديد الذي ذكره ابن كثير قريب الاحتمال بشقيه، فأما الشق الأول فيؤيده أن ركب النبي ﷺ وصل وهو قادم في رحلة الهجرة إلى مشارف المدينة في نحر الظهيرة، ونزل في ظل نخلة، ثم أرسل رسول الله ﷺ رجلًا من أهل البادية، يؤذن بهما الأنصار – كما في حديث أنس من طريق ثابت البُناني عند أحمد – فتهيأ الأنصار ونهضوا في السلاح، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وصاحبه وهما في مكانهما من ظل النخلة التي أويا إليها ليتقيا

حر الهاجرة، وفي هذا الحديث أنهما - أي رسول الله ﷺ وصاحبه الصدِّيق - كمنا في بعض خِراب المدينة[١٠]، وعند ابن سعد، فقال رسول الله ﷺ لما انتهى إلى الجثجاثة قال: «مَن يدلنا على الطريق إلى بني عمرو بن عوف، فلا يقرب المدينة؟» فسلك على طريق الظبي حتى خرج على العصبة، وكان المهاجرون قد استبطئوا رسول الله ﷺ في القدوم عليهم، فكانوا يغدون مع الأنصار إلى ظَهْر حرة العصبة يتحينون قدومه، ولعل هذه الحرة هي المقصودة بقول أنس: فَكَمِنَا في بعض خراب المدينة، وقال الزرقاني في بيان الحرة: أرض ذات حجارة سود، كانت بها الواقعة المشهورة أيام يزيد بن معاوية، وفي حديث عبد الرحمن بن عويم الساعدي عند الحاكم: كنا نخرج فنلجأ بظاهر الحرة نلجأ إلى ظل المدر حتى تغلبنا الشمس عليه، ثم نرجع إلى رحالنا.

وكل هذا يعطي أن زمنًا ليس بالقليل قد مر بين وصوله ﷺ إلى المكان الذي كمن فيه ومعه صاحبه، وهو الذي قيل عنه في رواية أنس (خراب المدينة) ويمكن أن يكون هو (حرة) العصبة كما في رواية ابن سعد، وقد تكون هذه الحرة هي التي وقعت فيها واقعة يزيد - وبين مجيء الأنصار في أهبتهم بعد أن أرسل إليهم يؤذنهم بوصوله وبين وصولهم إلى مكانه، ثم سار بهم حتى نزل

(١٠) خِراب جمع مفرده خربة، وهو الموضع الخالي غير المسكون.

علـى بني عمرو بن عوف في قباء زمن، وهذا الزمن لا يسـتبعد أن يكون قـد انتهى إلى أوائل الليل، فقول الصديق: فقدمنا ليلًا يراد به فوصلنا بعد أن قدم إلينا الأنصار الذين أُعلموا بوصول رسول الله ﷺ وسار بهم الركب إلى قباء ليلًا.

وأمـا الشـق الثاني في ترديـد ابن كثير فيوضحه أن رسـول الله ﷺ ركـب من قبـاء بعد أن أكمل بناء مسـجدها حين ارتفع النهار من يوم الجمعة، وسـار الركب يحف به الأنصار الذين يقدمون من المدينـة، والذين نهضوا مـن أهل قباء لتوديعه ﷺ حتى وصل إلى منـازل بني سـالم بن عوف حيـث أدركته الجمعـة، فنزل وصلاها في مسجدهم، مسجد غبيب في وادي رانوناء، وخطب أول خطبة جمعة في الإسلام بعد النبوة.

ثم ركب من بني سالم بن عوف وسار إلى المدينة بعد أن تضرع إليه بنو سـالم وهم آخذون بزمام ناقته أن يبقى بينهم حيث العدد والعدة والمنعة والثروة، فدعا لهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها فانطلقت ورسول الله ﷺ مرخ لهـا زمامها لا يثنيها ولا يكفها، وكلما مرّت بدار من دور الأنصار نهض أشـرافها ورؤسـاؤها لاسـتقبال رسـول الله ﷺ وسـؤاله في ضراعـة الحب والفداء أن ينزل فيهم حيث العدد والعدة والمنعة، فيدعو لهم بخير، ويقول لهم مثل ما قال لإخوانهم الذين سبقوهم

بهذا الرجاء والرغبة الملحة، حتى بلغت دار بني مالك بن النجار، حيث المكان المطهر الذي اختاره الله ليكون مسجدًا تشع منه أنوار الهداية على الدنيا بأسرها علمًا وعملًا، وحيث المكان الأطهر الذي اختاره الله تعالى مستقرًا لرسوله في حياته، ومثوى لجسده الشريف بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وكان هذا المكان مربدًا مملوكًا لغلامين يتيمين من بني النجار، كانا في حجر أسعد بن زرارة كما في رواية البخاري، أو في حجر معاذ بن عفراء، كما عند ابن إسحاق وغيره.

قال ابن كثير: وقد كان في المدينة دور كثيرة، تبلغ تسعًا، كل دار محلة مستقلة بمساكنها ونخيلها وزروعها وأهلها، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم، وهي كالقرى المتلاصقة، فاختار الله لرسوله ﷺ دار مالك بن النجار.

وهذا السير من قباء بصورته التي ترسمها الروايات، وما جرى فيها من لقاء وحديث ليس من المُستبعد أن يستغرق من الزمن ما يصل به عند انتهائه إلى الليل، وهذا يرجح قول الصديق: فقدمنا ليلًا، في مقابلة الروايات الأخرى التي تصادم في ظاهرها هذه الرواية المرتفعة في سندها ومعناها.

وقوله ﷺ: «أنزل على بني النجار، أخوال عبد المطلب، أكرمهم بذلك» هو معنى قوله ﷺ حين كان يدعوه أشراف بطون

الأنصار إلى المنزل فيقول: «دعوها فإنها مأمورة، فإنما أنزل حيث أنزلني الله» كما ذكره موسى بن عقبة في مغازيه ومعناه أن مسيري ومنزلي ومستقري إنما هو بيد الله، أسير بأمره وأنزل بمشيئته، وأستقر حيث يريد، وهذا بيان منه ﷺ أنه لا يخص بطنًا من بطون الأنصار، ولا دارًا من دورهم.

ولما بركت ناقته ﷺ في مكان مسجده، وألقت جرانها ورزمت(١١)، ولم تنهض منه بعد عودتها إليه - رغم ما صنعه بها جبار من النخس بحديدة معه رجاء أن تنهض فلم تفعل - ونزل عنها رسول الله ﷺ، وعلم أن هذا منزله الذي أنزله الله، واختاره لمستقره ومثواه وسأل ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه داري وهذا بابي، ونقل رَحْل رسول الله إلى منزله، ثم قال له رسول الله ﷺ: «فانطلق فهيئ لنا مقيلًا» فذهب وهيأ المقيل، ثم جاء فقال: قد هيأت مقيلًا، قوما على بركة الله فقيلا، وفي حديث عبد الله بن الزبير عند البيهقي أن رسول الله ﷺ حين نزل عن راحلته، آوى إلى ظل عريش كانوا يستظلون تحته ويتبردون فيه، فأتاه أبو أيوب، فقال: يا رسول الله، إن منزلي أقرب المنازل إليك، فانقل رحلك إليّ؟ قال رسول

(١١) ألقت بجرانها، أي: بعنقها. ورزمت أي: لزمت مكانها. (المجلة)

الله ﷺ : «نعم» فذهب أبو أيوب برحل رسـول الله ﷺ إلى منزله ، ثم جاء رجل فقال : يا رسـول الله ، أين تحل ؟ فقال رسـول الله ﷺ : «إن الرجل مع رحله حيث كان» .

وثبـت ﷺ في العريش اثنتي عشـرة ليلة حتى بنى المسـجد ، والظاهـر الذي تفيده أكثر الروايات أنـه اتخذ من منزل أبي أيوب مستقرًا له قبل بناء مسجده ومساكنه يأوي إليه لطعامه ونومه ، وما يتطلبه الاستقرار الشخصي من شئون وأحوال ، واتخذ من العريش مكانًـا لراحتـه المؤقتـة ، يسـتظل بـه ، ويتبرد فيـه أثنـاء النهار ، ويلقى فيه أصحابه ، ويشـرف منه على بناء المسجد ، ويشارك في العمل في بنائه أصحابه ، ينقل معهم اللبن ، وينشـد معهم الشـعر يتخففون به من ثقلة العمل ، فهو ﷺ لم يشأ أن يدخل إلى مستقره فـي منزل أبي أيوب ويترك أصحابـه يعملون ، ولكنه أراد أن يكون معهم يرونه ويراهم ، ويشـهد عملهم ويشـهدون مشـاركته لهم ، فجعل من العريش مظلة يسـتظل بها ساعة من النهار ، ويقابل فيها مَن يشـاء من أصحابـه القادمين عليه للهدايـة أو التزود من معالم الإيمان والتفقه في الدين .

ونزولـه ﷺ في دار أبي أيوب بأمر الله تعالى منقبة عظيمة لأبي أيوب خالد بن زيد النجاري تُضاف إلى مناقب الأنصار عامة ، وإلى مفاخر بني النجار خاصة .

أول هدية أهديت إليه ﷺ لما نزل المدينة:

وعـن زيد بن ثابت -رضـي الله عنه- أنه قال: أول هدية أهديت إلى رسول الله ﷺ حين نزل دار أبي أيوب أنا جئت بها: قصعة فيها خبز مثرود بلبن وسـمن، فقلت: أرسلت بهذه القصعة أمي، فقال ﷺ: «بارك الله فيك» ودعا أصحابه فأكلوا، ثم جاءت قصعة سـعد بـن عبادة: ثريد وعراق لحم[١٢]، ومـا كان من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة يحملون الطعام يتناوبون.

وبعـث ﷺ - وهـو نـازل في دار أبـي أيوب مَـن يحضر أولاده وزوجـه - كمـا رواه الطبراني من حديث عائشـة رضـي الله عنها، قالت: لما هاجر ﷺ وأبو بكر خلَّفنا بمكة، فلما استقر بالمدينة بعـث موليـيـه، حبه زيـد بن حارثـة، وأبا رافـع، ومعهمـا بعيران وخمس مئة درهم، ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد، وكانت رقية قد هاجرت مـع زوجها عثمـان بن عفان رضـي الله عنهما، وزينـب مع زوجها بمكـة، أبي العاصي بـن الربيع، وجاءت معهـم أم أيمن امرأة زيد بن حارثة، وأم أسـامة ابنه، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، وفيهم عائشة أم المؤمنين، ولم يدخل بها رسول الله ﷺ إلا في المدينة، وكان مقامه ﷺ في دار أبي أيوب سـبعة أشـهر في

(١٢) عراق اللحم: عظام عليها لحوم رقيقة طيبة. (المجلة)

رواية الواقدي عند ابن سعد، وجزم به ابن حجر في الفتح، وحكى صاحب المواهب أنه ﷺ أقام في دار أبي أيوب إلى صفر من السنة الثانية، والمشهور المرجح أنه ﷺ وصل إلى المدينة المنورة في ربيع الأول لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، وحينئذ تكون إقامته عند أبي أيوب أكثر من عشرة أشهر، هذا قول ابن إسحاق، قال: فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة، حتى بنى مسجده ومساكنه، وذهب الدولابي - كما حكاه مغلطاي - أنه ﷺ أقام في دار أبي أيوب شهرًا وهذا قول غريب جدًا؛ لأنه ﷺ لم يبعث في إحضار بنتيه فاطمة وأم كلثوم، وزوجته سودة بنت زمعة ومولاه الحب ابن الحب: أسامة بن زيد رضي الله عنهم إلا بعد أن أكمل بناء مسجده ومسكن زوجته، فكم يوم مضى في بناء المسجد، وهو مئة في مئة، وفي بناء المسكن، وهو على بساطته يحتاج إلى عمل وأدوات، هي على خفتها لا تتوافر في ساعة طلبها والحاجة إليها؟ مع ملاحظة ما يحتف بذلك من شئون عامة أو خاصة، وما يشغل النبي ﷺ من أمور لا غناء عنها في مسير الحياة، وما يشغله ﷺ من تبليغ رسالته ونشر دعوته، والتحدث إلى أصحابه، وتلقي الوحي وكتابته وتلقي القادمين عليه ﷺ طلبًا للهداية والتفقه في الدين؟ وكم يوم مضى في طريق المبعوثين إلى مكة للقيام بمهمتهما، وكم من الزمن مضى في الإعداد للسفر، وكم يوم مضى في الأوبة بمن معهما من

النســاء والأطفال، ممن لا يتحملن شدة السفر السريع وما فيه من مشــقة تتطلب شــيئًا من الراحة والرفق، ولعل في رواية هذا القول عن الدولابي شيئًا من الوهم أو التجاوز.

من أدب أبي أيوب الأنصاري:

ومــن لطائف الأدب التربوي وصور الحب القدســي ما رُوي عن أبي أيوب -رضي الله عنه- - كما جاء في كتاب (الذكر والدعاء) للإمام أبي يوســف صاحب أبي حنيفة رحمهمــا الله، قال يصور ما وقع له ولأهل بيته - أولًا - في غمرة الحب، ولهفة الرغبة في الفوز برســول الله ﷺ ونزوله عنده في داره من سهوة لم تمر محتملاتها الخفيفة بخاطره:

لما نزل عليّ رســول الله ﷺ في بيتي نزل في الســفل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رســول الله، إني أكره وأعظــم أن أكــون فوقــك، وتكون تحتــي، فاظهر أنــت، فكن في العلــو، وننزل نحن فنكون في الســفل، فقــال ﷺ: «يا أبا أيوب، إن أرفق بنا، وبمن يغشــانا أن أكون في ســفل البيت» فكان رسول الله ﷺ في سفل البيت وكنا فوقه في المسكن، فلما خلوت إلى أم أيوب قلت لها: رسول الله ﷺ أحق بالعلو منا، تنزل عليه الملائكة وينزل عليه الوحي، فما بت تلك الليلة لا أنا، ولا أم أيوب.

وفــي بعض الروايــات عند البيهقي في الدلائــل من طريق أفلح

مولى أبي أيوب أن أبا أيوب تنبه ليلًا، فقال: نمشي فوق رسول الله ﷺ! فتحول فباتوا في جانب، قال أبو أيوب: فلما أصبحت قلت: يا رسول الله، ما بت لا أنا ولا أم أيوب، قال رسول الله ﷺ: «لِمَ يا أبا أيوب؟» قال: كنت أحق بالعلو منا، تنزل عليك الملائكة، وينزل عليك الوحي، لا والذي بعثك بالحق لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبدًا، فلم يزل أبو أيوب يتضرع إلى رسول الله ﷺ حتى تحول إلى العلو ونزل أبو أيوب وأهله في السفل.

ويقول أبو أيوب في تصوير أدب الحب، وتقديس النبوة: فلقد انكسر لنا حُب(١٣) لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب لقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء، تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وهذه اللطائف الهامسة الخفيفة تصور في بساطة من الحياة مدى التوقير وقداسة الحب التي تكنها قلوب أصحاب النبي ﷺ له، إيمانًا بأن حبه ﷺ لُبّ الإيمان برسالته، وأن تعظيمه وتوقيره فوق كل تعظيم عظيم، وتوقير كل موقر كبير هو عنوان اليقين.

وشيجة الحب بين رسول الله ﷺ وبين عامة الأنصار:

ولقد برهن الأنصار في شتى مواقفهم على أن إيمانهم برسول الله ﷺ وبرسالته كان إيمان حب أفعمت به قلوبهم، وبادلهم رسول الله

(١٣) الحُب: الجرة الضخمة. (المجلة)

ﷺ هذا الحب بحب أجل وأعظم، عم به رجالهم ونساءهم شيبهم وشبابهم، غلمانهم وأطفالهم، فقال لهم: «والله وأنا أحبكم» و«يعلم الله أن قلبي يحبكم» و«أنتم من أحب الناس إليّ».

ووشائج الإيمان إذا قامت على الحب كانت صورة للنفس الإنسانية في أصفى صفائها، وصورة للفطرة البشرية في أنقى نقائها، تعجز عظائم الأحداث عن فصم عراها، وهكذا كان إيمان الأنصار حبًا مؤمنا، وكان حبهم إيمانًا مؤثرًا، فاستحقوا من دون سائر الناس الاستئثار برسول الله ﷺ حياته ومثواه.

ومن ثَم تتبين إشارات الأقدار في مطويات كلمات رسول الله ﷺ إذ قال: «إنما أنزل حيث أنزلني الله» فكان نزوله في ديار بني مالك من بني النجار على أبي أيوب بإذن الله وأمره، وأبو أيوب يمثل بحبه وإيمانه وتوقيره لرسول الله ﷺ إيمان الأنصار وحبهم وتوقيرهم، فنزول رسول الله ﷺ عليه في داره مفخرة للأنصار عامة، ولبني مالك بن النجار خاصة، ولأبي أيوب أخص الخاصة، لأنه -رضي الله عنه- اختير باختيار الله تعالى لهذه المنقبة المنيفة، واختيرت داره المطهرة لتكون مهبطًا للوحي وهو ينزل على رسول الله ﷺ آناء الليل والنهار، وللوحي قداسته وسموه ورفعة شأنه، وللنبي ﷺ عظمته وعلو مكانته التي لا تُسامى.

فأبو أيوب عَجَّلَ في نقل رحل النبي ﷺ إلى منزله، فوضعه

قريبًــا في ســفل المنزل، وهيأ للنبي ﷺ وصاحبه مقيلًا في ســفل المنــزل حيــث حط الرحــل، لعل أن يكــون للنبــي ﷺ حاجة في رحله، وهو قادم من ســفر بعيد شاق، فيكون قريبًا منه، وسها أبو أيــوب في هذه الغمرة من الفرحة أن ينظر في كونه وأهله في العلو من البيت، والنبي ﷺ في الســفل من الدار مما لا يجب أن يكون، ثــم تنبــه لأول لحظة اطمأن فيهــا بتحقيق لهفته فــي الفوز بنزول رسول الله ﷺ عليه في داره إلى ما كان منه من سهوة تجافي كمال التوقير، فأســرع وأبدى للنبي ﷺ كراهيتــه لهذا الوضع وإعظامه له، فجعل يتضرع إلى رســول الله ﷺ في أن يغير هذا الوضع الذي جلبته عليه ســهوة عابرة، فأجابه رسول الله ﷺ فتحول إلى العلو، ونزل أبو أيوب وأهله إلى السفل.

وكان مــن لطائــف حب أبــي أيوب لرســول الله ﷺ تحين آثاره التماسًــا لبركاته، روى الحاكم وغيره أن أبا أيوب قال: كنا نصنع لرســول الله ﷺ العشــاء، ثــم نبعث بــه إليه، فــإذا رد علينا فضله تيممــت أنا وأم أيوب موضع يده نبتغــي البركة بذلك، حتى بعثنا إليه بعشائه وقد جعلنا فيه بصلًا أو ثومًا، فرده ولم أر ليده فيه أثرًا فجئتــه فزعًا، فقلت: بأبــي أنت وأمي، رددت عشــاءك ولم أر فيه موضــع يدك؟ فقال: «إني وجدت فيه ريح هذه الشــجرة وأنا رجل أُناجى، فأما أنتم فكلوه».

وفـي دلائـل البيهقي عن أبي أيـوب من طريق الليث بن سـعد عــن يزيد بــن أبى حبيب عن مرثد بن عبـد الله اليزني عن أبي رهم السـماعي قال: حدثني أبو أيوب قال: كنا نصنع لرسـول الله ﷺ طعامًا، فإذا جيء بفضله سـأل أبو أيوب عن موضع أصابع رسـول الله ﷺ، فيتتبـع موضـع أصابعه، فصنع له طعامًا فيـه ثوم فلما رُدَّ إليـه سـأل عن موضـع أصابع رسـول الله ﷺ، فقيل له لـم يأكل، ففزع وصعد إليه، وقال: أحرام؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكني أكرهـه» فقال أبـو أيوب: فإني أكره ما تكـره أو ما كرهت. وكان النبـي ﷺ يأتيـه الملك، قال ابن كثير: رواه مسـلم عن أحمد بن سـعيد - أي الدارمـي - به وسـياق ابن إسـحاق له أتم من سـياق البيهقي، ورواه أبو بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد المؤدب عن الليث.

الدعامة الأولى في بناء الأمة الإسلامية
بناء المسجد الأعظم

كانت المرحلة الأولى في سير الرسالة الخالدة، خاتمة رسالات السماء، رسالة محمد خاتم النبيين ﷺ في مكة مرحلة تأسيس العقيدة التوحيدية، وتثبيتها بإقامة البراهين القاطعة عقلًا ونقلًا، ونصب منائر الأدلة الساطعة على مشارف طرائق سيرها، سواء أكانت الأدلة تكوينية مبثوثة في عناصر الكون ومظاهر الطبيعة، أم كانت تنزلية، تنزَّل بها الوحي لهداية العقول وتنوير القلوب، وتحصين هذه العقيدة التي هي المقصود الأعظم والغاية العظمى لجميع رسالات الله -تعالى- إلى أهل الأرض من أن تحوم حولها حوائم الشبهات الإلحادية وأساطير الوثنيات المادية، وتقويض أبنية الشرك، وسدانات الأصنام والأوثان في جميع صورها وأشكالها وسائر ضروب الشرك وألوانه وتطهير القلوب والعقول من رواسب موروثات الجاهلية.

وقد كانت هذه المرحلة أطول مراحل سير الرسالة الخالدة زمنًا، وأملأها حجاجًا فكريًا، وأفعمها نضالًا عقليًا، وأبلغها إيقاظًا للفطرة الإنسانية.

كان الجهاد فيها جهادًا منطقيًا يستنطق القرآن الكريم في دلائل آياته على عظمة الكون وخالقه ومدبره، وكان سلاح الجهاد فيها الصبر الحمّال لفوادح البلاء، يقول الله تعالى في جهاد هذه

المرحلـة : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

(الفرقان : ٥١ ، ٥٢) .

قال الزمخشري في تفسيره : ولو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميـع القـرى و(لبعثنا فـي كل قرية) نبيًا ينذرهـا ، وإنما قصرنا الأمر عليك ، وعظمناك به ، وأجللناك وفضلناك على سـائر الرسل -أي لعموم رسـالتك وخصوص رسـالاتهم- فقابلْ ذلك بالتشـدد والتصبر ، (فـلا تطع الكافرين) فيما يريدونـك عليه ، وإنما أراد بذلك تهييجه وتهييـج المؤمنين وتحريكهم ، والضمير - أي في قولـه (به) - للقرآن . . والمراد أن الكفـار يجدّون ويجتهدون في توهيـن أمـرك ، فقابلهم من جـدك واجتهادك ، وعضـك بالنواجذ بمـا تغلبهم به وتعلوهم ، وجعله جهادًا كبيـرًا لما يحتمل فيه من المشـاق العظام ، لأنه ﷺ نذير جميع القرى ، لعموم رسالته ، لأن الله لـو بعـث في كل قريـة نذيرًا لوجبـت على كل نذيـر مجاهدة قريتـه ، فاجتمعـت على رسـول الله ﷺ تلك المجاهـدات كلها ، فكبـر جهاده مـن أجل ذلك وعظم ، فقال له (وجاهدهم) بسـبب كونـك نذير كافة القرى جهـادًا كبيرًا جامعًا لـكل مجاهدة ، فلم يكن في هذا الجهاد قتال ، ولا رد للاعتداء ، وإنما هو جهاد الحجة البالغة والبرهان القويم في سياق من فنون الإعجاز والهداية وبراعة البيان .

ولما اكتمل بناء العقيدة التوحيدية في هذه المرحلة، وظهر شامخًا، وطيد الدعائم، راسخ الأركان، ثابت القواعد، لا تهزه أعاصير الحياة، ولا تقف أمامه هلهلة الإلحاد الفكري وسخافات الوثنية المادية وترهات أباطيل الشرك وخزعبلات الجهالات، ولا ينال منه فجور العناد، وعتو الاستكبار، وطغيان الكفر.

وحتى إذا استيأس رسول الله ﷺ من رجاء الأمل في عجاف ملأ الفجور، أمره الله تعالى بالهجرة إلى طيبة حيث وداعة الإيمان، ولطف العشرة، والوفاء بالعهد وشدة البأس على كل من تسول له نفسه المساس بالدعوة إلى الله ورسالة الخلود، ليقيم فيها معالم رسالته -بعد أن أرسى قواعدها على قوة الحق وهدى البرهان ونور الحجة- على أساس من التشريع الحكيم المحكم الذي يستمد حكمته وأحكامه من منابع العقيدة التوحيدية.

هذا التشريع الذي أسَّس علاقات الأمة في تعبداتها وسياسة حكمها ونظام حياتها الاجتماعية في معاشها ومعاملاتها بتبادل المصالح بين أفرادها وجماعاتها، وبينها وبين المجتمعات الإنسانية كلها في أرجاء الأرض -على عُمُد من العدالة التي تعطي لكل ذي حق حقه، وتضع إلى جانب كل حق واجبًا تقتضيه إراحة الحق على أهله، فكل من أخذ حقًا فعليه أن يؤدي للمجتمع واجبًا.

اختيار الله -تعالى- لمكان المسجد الأعظم:

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة مهاجرًا إليها من مكة نزل أول ما نزل في مشارفها على بني عمرو بن عوف في قباء، فأسس مسجدها وأكمل بناءه، ثم ترحل عنهم إلى داخل المدينة، وكان الأنصار في محلاتهم وديارهم يخرجون للقائه ﷺ، كلما مرّ بدار قوم منهم أخذوا بزمام ناقته يتضرعون إليه ويرجون منه أن ينزل فيهم حيث العدد والعدة والمنعة والثروة، فكان ﷺ يتلطف بهم شاكرًا ويدعو لهم ويقول خيرًا، ويطلب إليهم أن يدعوا الناقة تواصل سيرها، فإنها مأمورة، ومسيرة بإذن الله وأمره، وزمامها بيده ﷺ، لا يثنيها عن اتجاهها ولا يكفها. وواصلت القصواء سيرها ورسول الله ﷺ عليها، يحف به جموع أصحابه من المهاجرين والأنصار، حتى بلغت فناء أبي أيوب -خالد بن زيد الأنصاري النجاري- في محلة بني مالك بن النجار، فبركت هناك، وتلحلحت، وألقت بجرانها، ورزمت ولزمت مكانها، فلم تنهض منه، وكان موضع بروكها وما حوله مربدًا مملوكًا لغلامين يتيمين في حجر أبي أمامة أسعد بن زرارة، نقيب بني النجار، الذي اتخذ في ناحية من المربد مسجدًا يصلي فيه بأصحابه، ويجمع بمن حضره من المسلمين الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ، فلما قدم رسول الله ﷺ، كان يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم - كما في حديث أبي التياح عن أنس بن مالك عند البيهقي.

ثم أمر ﷺ بالمسجد، فأرسل إلى بني النجار، فجاءوا فقال لهم ﷺ: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم» -أي مربدكم الذي كان حائطًا وبستانًا عامرًا- فقال بنو النجار: لا، والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، وهم يريدون أن يتحملوا ثمنه للغلامين سهل وسهيل ابني عمرو من أموالهم، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله بغير ثمن.

وقد حكى ابن القيم عن الزهري أن النبي ﷺ ساوم الغلامين بالمربد ليتخذه مسجدًا، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله فأبى ﷺ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وفي حديث عائشة -رضي الله عنها- عند البخاري أن النبي ﷺ دعا الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدًا، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى ﷺ أن يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدًا.

وإطلاق وصف اليتم على الغلامين وقت مساومتهما وبيعهما كان باعتبار ما كان قبل ذلك وقبل بلوغهما، وحين تم بيعهما كانا بالغين، فصح بيعهما، ويكون ذكر بني النجار في المساومة، لحضورهم المساومة مع الغلامين، ثم بيعهما، وهذا التأويل أليق برواية الصحيح من أن المساومة والبيع وقعا من الغلامين، أما إذا كان البيع قد وقع ممن له حق التصرف في أموالهما بالإصلاح والإنماء والعدل، فتكون مساومة النبي ﷺ لهما وإسناد البيع

إليهمـا لحضورهما مجلس المسـاومة والبيع، ويكونـان قد أرادا إرضاء النبي ﷺ، فقالا: بل نهبه إليك يا رسـول الله، فلما أبى ﷺ قبوله بغير ثمن تمت المسـاومة والبيع مع وصيهما الذي كانا في حجره، وأسندت إليهما تطييبًا لخاطرهما.

وعنـد ابن إسـحاق أن الغلامين كانا في حجـر معاذ بن عفراء، فلما سـأل رسول الله ﷺ عن المربد لمن هو؟ قال معاذ بن عفراء: هـو يا رسـول الله لسـهل وسـهيل ابني عمـرو، وهمـا يتيمان في حجـري ووصايتـي، وسـأرضيهما عنـه فاتخذه مسـجدًا، وما في البخـاري من أن الغلامين كانا في حجر أسـعد بـن زرارة هو الثبت المعول عليه لصحته، ولما روي أن أسـعد بن زرارة عوض الغلامين عـن المربد نخلًا في بني بياضة، وعند الزبير بن بكار أن أبا أيوب أرضى الغلامين عن ثمن مربدهما وليس هذا اختلافًا، ولكنه تنافس فـي الخير، لإرضاء رسـول الله ﷺ وتحقيق رغبتـه الكريمة في أن يبني للدعوة وأهلها المسـلمين مسـجدًا عامًا جامعًا، يجمع أفراد جماعـات المجتمع المسـلم الجديـد توحيدًا لصفهـم، وتوطيدًا لدعائـم الأخوة بينهـم، ولكن الثابت الصحيح أن رسـول الله ﷺ أبى أن يأخذ المربد هبة، لا من الغلامين، ولا ممن كانا في وصايته وحجره، واشتراه ودفع ثمنه من مال أبي بكر الصديق.

وعند الشـيخين من حديث أنس بن مالـك: أنه كان في موضع المسـجد نخل وخرب، ومقابر للمشـركين، فأمر رسـول الله ﷺ

بالقبور فنبشت، وبالعظام فغيبت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطعت.

قال ابن سعد في الطبقات: وكان في المربد ماء مسجل -أي نزيز تقذف به الأرض- فسيروه حتى ذهب. ولما تم إصلاح الأرض وتسويتها أمر ﷺ باتخاذ اللبن -أي الطوب النيئ- فاتخذ ثم شرع في بناء المسجد وعمل فيه ﷺ بنفسه الشريفة، كما جاء في حديث عائشة عند البخاري أنه ﷺ كان ينقل اللبن معهم في بنائه، ليرغب المسلمين في هذا العمل الصالح، ويشجعهم، وينشطهم، فنهض في العمل المهاجرون والأنصار بهمة وعزيمة وإخلاص ودأب، وكانوا ينشدون الشعر وهم يعملون، ليبعثوا في أنفسهم النشاط، وليذهبوا عنها ما عسى أن يعتريها من فتور واسترخاء، وكان النبي ﷺ يشاركهم الإنشاد وهم يقولون من شعر عبد الله بن رواحة:

هذا الحمالُ، لا حمال خيبرْ

هذا أبر ربنا وأطهرْ

النبي ﷺ يشارك الصحابة في بناء المسجد:

ثم يتحولون إلى لون آخر من شعره أيضًا إذهابًا للسأم، كما ذكره ابن بطال في شرحه للبخاري، ونقله ابن حجر في الفتح وأقره.

اللهــم إن الأجــر أجــر الآخــرة

فارحــم الأنصــار والمهاجــره

ونســب بعضهم هذا الرجز إلى امــرأة من الأنصار، وقد اختلفت عبارات الرواة في بعض ألفاظه، فعند الشيخين من حديث أنس جاء:

اللهــم لا خيــر إلا خيــر الآخــرة

فانصــر الأنصــار والمهاجــره

وقال ابن سعد في الطبقات: وكانوا يرتجزون، ورسول الله ﷺ معهم وهو يقول:

اللهــم لا خيــر إلا خيــر الآخــرة

فانصــر الأنصــار والمهاجــره

كمــا جاء فــي رواية أنس عند البخاري ومســلم، وقــد ذكر ابن كثير في (البداية والنهاية) هذا الرجز فقال: وجعل رسول الله ﷺ يقول، وهو ينقل معهم التراب:

هــذا الحمــالُ، لا حمــال خيبرْ

هـــذا أبـــر ربنـــا وأطهـــرْ

ويقول ﷺ:

لاهــم إن الأجــر أجــر الآخــرة

فارحــم الأنصــار والمهاجــره

ثــم ذكــره مرة أخرى في حديث أنس الذي جــاء فيه: فكان فيه -أي المربــد- ما أقول لكم، كانت فيه قبور المشــركين، وكانت

فيه خرب، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، قال أنس: فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه حجارة، فجعلوا ينقلون ذلك الصخر، وهم يرتجزون، ورسول الله معهم يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة

فانصر الأنصار والمهاجره

ثم قال ابن كثير: وقد رواه البخاري في مواضع أخر، ومسلم من حديث أبي عبد الصمد، وعبد الوارث بن سعيد، وقد ذكر الزرقاني رواية الشيخين عن أنس، وليس فيها لفظ (إنه) في قول الرجز: اللهم إنه.

وفي طبقات ابن سعد: وبنى رسول الله ﷺ المسجد وأصحابه، وجعل ﷺ ينقل معهم الحجارة بنفسه، ويقول: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة. فاغفر للأنصار والمهاجره.

وقد قدمنا أن ابن كثير ذكر أن النبي ﷺ كان ينقل معهم التراب، ويقول في الرجز الثاني: لاهُمَّ إن الأجر أجر الآخرة.

وهي رواية زعم الداودي في شرح البخاري أن ابن رواحه قالها هكذا (لاهم)، فأتى به بعض الرواة على المعنى أي فقال: (اللهم)، وإنما يتزن هكذا -أي (لاهُمَّ)- وقد رد الدماميني زعم الداودي بأنه توهيم للرواة بلا داعية لاحتمال أن الشاعر قاله بألف ولام على جهة الخزم، وهو من عيوب الشعر، لكنه لا ينفي أن يعد

ما وقع فيه شعرًا، وهذا رد كما يرى غير قوى، ويكفي في ضعفه أنه قائم على الاحتمال.

وقال ابن إسحاق: وارتجز المسلمون وهم يبنونه، يقولون: لا عيش إلا عيش الآخرة.. اللهم ارحم الأنصار والمهاجره. قال عبد الملك بن هشام: هذا كلام وليس برجز، ثم ذكر قول ابن إسحاق: فيقول رسول الله ﷺ:

لا عيش إلا عيش الآخرة،

اللهم ارحم المهاجرين والأنصار

ويظهر أن ابن إسحاق أراد من رواية هذا الشعر بصورة غيرته عن شعريته إلى كلام لا يوصف بالشعر، أن يدفع ما استشكل به إنشاد النبي ﷺ هذا الرجز مع أصحابه وهم يعملون في البناء على وزنه الشعري من معارضته لقول الله -تعالى- في نضحه عن رسول الله ﷺ(١٤) من قول أعدائه: إنه شاعر، أتى بشعر، وليس برسول أتى بكتاب هداية: وهذا - إذا صح أنه أراده ابن إسحاق - مردود بما يأتي:

قال ابن شهاب الزهري: ولم يبلغنا أنه ﷺ تمثل بشعر تام غير هذا البيت، وهذا صريح في استجازة الزهري أن النبي ﷺ يتمثل ببيت من الشعر كامل الوزن، ولا يكون في ذلك معارضة لنفي

(١٤) نضح عنه: دافع عنه. (المجلة)

الشعر عنه، وقد ناقش ابن حجر كلام الزهري، فقال: ولا اعتراض عليه -أي الزهري -ولو ثبت أنه ﷺ أنشـد غير ما نقله، لأنه نفى أن يكـون بلغه، ولم يطلـق النفي، أي أن الزهـري اعتمد في نفيه تمثـل النبي ﷺ بغيـر هذا البيت على ما بلغـه، ولو ثبت أن النبي ﷺ تمثل بغير هذا الشعر على استقامة وزنه ولم يبلغ الزهري فلا اعتراض بذلك على الزهري، لأنه لم يطلق النفي، أي لم يقل، ولم يتمثل النبي ﷺ بشـعر تام غير هذا البيت، ونفي أن يكون قد بلغ الزهري أن النبي ﷺ تمثل ببيت تام من الشعر غير هذا البيت لا ينفـي وقـوع أن يكون النبي ﷺ قـد تمثل ببيـت أو أبيات تامة الوزن، إذ لا تلازم بين نفي البلاغ ونفي الوقوع.

وقد استشـكل قول الزهري: تمثل -أي النبي ﷺ- بشـعر تام بقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ﴾ وهذا استشـكال ضعيف جدًا؛ لأن إنشـاد بيت من شعر شاعر على الوجه الذي قاله الشـاعر من تمام الوزن لا يدخل تحـت المنفي في الآية الكريمة، لأن المنفي بها هو إنشـاء الشـعر لا إنشـاده والتمثل به، وفي ظل هذا الاستشـكال الواهي ذهب ابن إسـحاق ومن قال بقوله إلى أن النبي ﷺ كان يقول: اللهم ارحـم المهاجرين والأنصار، ليخرجه عـن وزن الشـعر، فيصير كلامًا لا شـعرًا موزونًا، وهـذا قصور في فهـم معاني القرآن ومراميه، لأن الآية إنمـا جاءت لتنفي أن يكون

النبي ﷺ شاعرًا جاء بشعر أنشأه كما ينشئ الشعراء قصائدهم ومقطوعاتهم، وهل إنشاد بيت من الشعر والتمثل به يجعل من المنشد والمتمثل شاعرًا، هذا ما لا يتوهمه من له أدنى إلمام ومعرفة بالشعر وقوانينه، والأدب ومنازعه وفنونه.

ومن هذا القصور ما زعمه الكرماني من أن النبي ﷺ كان يقف على الآخرة والمهاجرة بالتاء متحركة ليخرجه عن الوزن، قال ابن حجر يرد ما زعمه الكرماني: لم يذكر مستنده، وكلام الزهري يرده، بل فيه -أي في زعم الكرماني- الوقف على متحرك، وليس عربيًا، فكيف ينسب إلى سيد الفصحاء؟

الإشارة إلى الخلافة الراشدة عند وضع أساس المسجد الأعظم:

وفي دلائل البيهقي عن الحسن: لما بنى ﷺ المسجد أعانه أصحابه، وهو معهم يتناول اللبن حتى اغبر صدره ﷺ، وفي حديث سفينة مولى رسول الله ﷺ عند البيهقي، وحديث عائشة عند أبي يعلى برجال الصحيح أنه ﷺ لما ابتدأ في وضع أساس مسجده وضع حجرًا، ثم قال: «ليضع أبو بكر حجره إلى جنب حجري، ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبي بكر، ثم ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر، ثم ليضع عليّ». فسئل ﷺ عن ذلك، فقال: «هؤلاء الخلفاء من بعدي» هكذا رواه الزرقاني

في شرح المواهب وافيًا.

وقد نقل ابن كثير عن البيهقي حديث سفينة بنحو مقارب لسياق الزرقاني ولم يذكر فيه عليًا، فقال: جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه، ثم جاء عثمان بحجر فوضعه، فقال رسول الله ﷺ: «هؤلاء ولاة الأمر من بعدي» وهو كما يرى، لم يذكر فيه عليّ. قال ابن كثير: ثم رواه البيهقي من حديث يحيى بن عبد الحميد الحماني، عن حشرج عن سعيد، عن سفينة بمثل رواية أبي يعلى، غير أنه لم يذكر فيه عليًا.

تحقيق روايات أحاديث الخلافة:

وقد علق ابن كثير على سياقات البيهقي لحديث سفينة بطريقيه فقال: وهذا الحديث بهذا السياق غريب جدًا، والمعروف ما رواه الإمام أحمد عن أبي النضر، عن حشرج الأشجعي، وعن بهز، وزيد بن الحباب، وعبد الصمد وحماد بن سلمة، كلاهما عن سعيد بن جمهان، عن سفينة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافة بعدي ثلاثون عامًا، ثم يكون من بعد ذلك الملك» ثم قال سفينة: أمسك، خلافة أبي بكر سنتين، وخلافة عمر عشر سنين، وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة، وخلافة على ست سنين.

ثم قال ابن كثير: ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طريق سعيد ابن جمهان، وقال الترمذي: حسن لا نعرفه إلا من حديثه،

ولفظه «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكًا عضوضًا».

قلت: وأخرجه مسلم في باب الإمارة، ولا ندري لماذا لم يذكره ابن كثير وهو أرفع درجة ممن ذكرهم.

وقد استهدف ابن كثير -كما يظهر- من سياقه رواية أحمد، والتنبيه على روايات أبي داود والترمذي والنسائي، وذكر لفظ الترمذي في مدة الخلافة الراشدة، وما يعقبها من ملك عضوض ردًا للروايات التي لم يذكر فيها عليّ، وهي حرية بالرد، ولا ندري لماذا لم يتعرض ابن كثير لحديث عائشة عند أبي يعلى، وهو -كما قال الزرقاني- برجال الصحيح، وفيه ذكر عليّ بعد عثمان -رضي الله عنهما-، وهو أقوى في الرد من حديث سفينة عند أحمد، لاحتمال أن يكونا حديثين، ولا ينفي الاحتمال أن الذي رَوَى عن سفينة في جميع الطرق هو سعيدُ بن جمهان.

وأخرج الإمام أحمد عن طلق بن على اليمامي الحنفي، قال بنيت المسجد مع رسول الله ﷺ، فكان يقول: «قربوا اليمامي من الطين فإنه أحسنكم له مسيسًا» وأخرج الإمام أحمد عن طلق أيضًا، قال: جئت إلى النبي ﷺ وأصحابه يبنون المسجد، وكأنه لم يعجبه عملهم، فأخذت المسحاة، فخلطت الطين، فكأنه أعجبه، فقال: «دعوا الحنفي والطين فإنه أضبطكم للطين» وأخرج ابن حبان عن طلق، قال: فقلت: يا رسول الله أأنقل كما ينقلون؟ قال: «لا، ولكن اخلط لهم الطين، فأنت أعلم به».

تميز اجتهاد عمار بن ياسر في بناء المسجد الأعظم:

وفي البخاري عن أبي سعيد أن المسلمين كانوا يحملون لبنة، لبنة، وكان عمار بن ياسر ينقل لبنتين، وفي جامع معمر: أن عمارًا كان يحمل لبنتين، لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ، أي حين يكون النبي ﷺ مشغولاً عنهم من الأمر بما يختص بالدعوة، أو بمصالح المسلمين، وإلا فهو ﷺ كان يعمل معهم في حمل اللبن أو الحجارة أو التراب، ما لم يشغله عن المشاركة لأصحابه شاغل أهم منها، وفي رواية لأبي بكر الإسماعيلي، وأبي نعيم أن النبي ﷺ لما رأى عمارًا يحمل لبنتين وأصحابه يحملون لبنة لبنة، قال له: «يا عمار ألا تحمل كما يحمل أصحابك» قال عمار: إني أريد من الله الأجر، فقال له -عليه الصلاة والسلام- بعد مسح ظهره، ونفض التراب عنه: «للناس أجر، ولك أجران، وآخر زادك من الدنيا شربة لبن، وتقتلك الفئة الباغية».

وفي مواهب القسطلاني أن الزين المراغي قال في كتاب (تحقيق النصرة) أن النبي ﷺ وضع رداءه فوضع الناس أرديتهم، وهم يعملون، ويقولون -قال الزرقاني: والذي رواه الزبير بن بكار عن مجمع عن أم سلمة، قال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبي يعمل
ذاك إذا للعمل المضلل

وآخرون يقولون:

لا يستوى من يعمر المساجدا

يدأب فيها قائمًا وقاعدًا

ومن يُرى عن التراب حائدًا

وفي رواية الزبير بن بكار أن الذي قال هذا الرجز على بن أبي طالب، قال ابن هشام: سألت غير واحد من علماء الشعر عن هذا الرجز فقالوا: بلغنا أن عليًا ارتجز به فلا يدرى أهو قائله أم غيره، وإنما قال ذلك مباسطة ومطايبة، كما هو عادة الجماعة إذا اجتمعوا على عمل وليس ذلك طعنا في أحد.

وذكر البيهقي عن الحسن قال: لما بنى ﷺ المسجد أعانه أصحابه، وهو معهم يتناول اللبن حتى اغبر صدره، وكان عثمان بن مظعون رجلًا (متنطعًا) -كلمة جافية ما نظن أن الحسن في فضله وسمو أدبه يقولها، وإن كان الذين رووا القصة، فسروا هذه الكلمة بقولهم: متغاليًا، متأنقًا في التنظف، ولكن هذا التفسير لا ينفي جفوة الكلمة بالنسبة للسُبَّق من أصحاب رسول الله ﷺ، ولو أن التعبير عنها كان بما فسرت به لكان أجمل- وكان عثمان بن مظعون -كما قال الرواة- يحمل اللبنة فيجافي بها عن ثوبه، فإذا وضعها نفض كمه ونظر إلى ثوبه، فإن أصابه شيء من التراب نفضه، فنظر إليه على بن أبي طالب، فأنشد يقول:

لا يستوى من يعمر المساجدا ... إلى تمام الرجز المتقدم

فســمعها عمار بن ياسر، فجعل يرتجز بها، ولا يدرى من يعنى بها، فمر بعثمان بن مظعون فقال عثمان له: يا ابن سـمية لأعرفن بمن تعرّض، ومعه حديدة، فقال: لتكفن أو لأعترضن بها وجهك، فسـمعه النبي ﷺ فغضب، ثـم قالوا لعمار: إنـه -أي النبي ﷺ- غضب فيك. ونخاف أن ينزل فينا قرآن، فقال عمار: أنا أرضيه كما غضب، فقال: يا رسـول الله، ما لي ولأصحابك؟ قال ﷺ: «مالك ولهم؟» قـال عمار: يريدون قتلي، يحملون لبنـة لبنة، ويحملون عليَّ لبنتين، فأخذ رسـول الله ﷺ بيده وطاف به المسـجد وجعل يمسـح وفرته، ويقول: «يا ابن سـمية، ليسـوا بالذين يقتلونك، تقتلك الفئة الباغية».

وهذه القصة ذكرها ابن إسـحاق، وتبعه فيها البيهقي، وساقها مرسـلة عن الحسـن البصري، ومراسيل الحسـن قيل فيها : إنها ريح، أي لا اعتداد بها لأنها لا تثبت للنظر الممحص، والتمحيص الناقد، وقد قيل في الحسن أنه يروي عن كل أحد.

وهـذا الرجز الذي قامت القصة الواهيـة على ركائزه تردَّد أهل العلم بالشعر - كما يقول ابن هشام - في كون علي رضي الله عنه هـو قائله ومنشـئه، أو هو مما تمثل به من شـعر غيـره، حين نظر إلى عثمان بن مظعون -كما يقول مرسل الحسن- ينفض ثوبه من التراب تنظفًا وتجملًا.

ومهما يكن فإن مرسل الحسن يوحى بأن عليًا رضي الله عنه قصد التعريض بعثمان بن مظعون، وأن عمارًا سمعه من عليّ فارتجز به، وإن كان لا يدري عمار من عنى عليّ بهذا الرجز، فلما أكثر عمار من إنشاد هذا الشعر ظن ابن مظعون أن عمارًا يقصده معرضًا به، فغضب لنفسه، وتهدد عمارًا بما زعمه مرسل الحسن عند البيهقي، وسمع النبي ﷺ تهديد ابن مظعون عمارًا فغضب ﷺ لعمار، وقال -كما يقول ابن إسحاق-: «ما لهم ولعمار، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، إن عمارًا جلدة ما بين عيني وأنفي، فإذا أبلغ ذلك من الرجل، فلم يُسْتَبق فاجتنبوه».

وفي رواية مرسل الحسن أن النبي ﷺ أخذ بيد عمار، وطاف به المسجد وجعل يمسح وفرته ويقول: «يا ابن سمية؟ ليسوا بالذين يقتلونك، تقتلك الفئة الباغية».

ورواية ابن إسحاق تحمل في طياتها قرائن ضعفها، لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يعتبر تهديد ابن مظعون عمارًا -بما زعمته الرواية- دعوة إلى النار، ولا يمكن أن يقول ﷺ عن عثمان بن مظعون من أجل كلمة دفع بها عن نفسه في زعم الرواية، أنه يدعو عمارًا إلى النار.

ومما يدل على وهن هذه القصة وضعفها في تفاصيلها وتعاريجها التي ساقها بها ابن إسحاق عن رواته والبيهقي في مرسل الحسن أن ابن سعد في الطبقات لم يذكرها إطلاقًا، ولم

يذكر هذا الرجز الذي قامت على دعائمه.

وأن ابــن كثير لم يعــرج عليها في (بدايته) ولــم يذكر رجزها مــع أنه أطنب في إيــراد وتحقيق الروايات التــي ذكرت قول النبي ﷺ لعمــار تقتلك الفئة الباغية، ومع أنه ســاق كلام ابن إســحاق، وفيه الرجز المذكور وقصته، ولكنه -رحمه الله- في فضله وعلمه وورعه لم يستجز ذكر هذا الرجز وقصته الضعيفة، كما لم يستجز ابن هشــام تســمية عثمان بن مظعون، واكتفى بقولــه: فلما أكثر عمار من إنشــاد هذا الرجز ظن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنه إنما يعرِّض به، وقد غمز ابن هشــام ابن إسحاق، فقال: وقد سمى ابن إسحاق الرجل.

قــال الســهيلي فــي (روضه): وذكر ابن إســحاق قــول الرجل لعمار: قد سمعت ما تقول يا ابن سمية.

ثم قال السهيلي: قال ابن هشام: وقد سمى ابن إسحاق الرجل، وكره ابن هشام أن يسميه كي لا يُذكر أحد من أصحاب رسول الله ﷺ بمكروه، فلا ينبغي إذن البحث عن اسمه.

وهــذا لــون من الأدب النفســي والتعبير الرفيــع الذي يجب أن يحاط به الحديث عن أصحاب رســول الله ﷺ إذا ثبت وقوع بعض الهنــات من بعضهم اســتجابة لدواعي البشــرية فــي فورة غضب، تكريمًــا لهم، وإعظامًا لفضلهم على الحياة، فما بالك بما تذكره قصص واهية واهنة؟

وممن أهملها ولم يذكر رجزها ولا قصتها ابن القيم في (الهدي).

ومما يدل على وهن هذه القصة إلى جانب ما تقدم ما اشتملت عليه من ألفاظ نابية جافية لم تعهد من الصحابة في أحاديثهم ومحاوراتهم، ولو استغضب بعضهم بعضًا إلا قليلًا مما يصدر عن غير السابقين الأولين.

وهذه الرواية المرسلة تصف الصحابي الجليل النبيل عثمان بن مظعون بأنه رجل (متنطع) وهي كلمة جافية نابية لا يصف بها مهذب مهذبًا، ولو أن رواية القصة كانت صحيحة لأحاط بها أدب التعبير، ولخرجت إلى الناس خالية عن مثل هذه الألفاظ الجافية، ولأمكن وصف رجل في مثل سابقة عثمان بن مظعون وفضله ونبله وشجاعته بغير هذه الكلمة التي تنادي على قائلها بأنه لا يبالي من أين أخذ، ولا إلى أين يسير في تعبيره، والحسن البصري أحد سادة التابعين في فضله وورعة وخوفه من الله تعالى يبعد جدًا أن تصدر منه هذه الكلمة في وصف رجل من أفضل أصحاب رسول الله ﷺ أو يرويها عن غيره.

فكيف يسوغ إذا لمن يرجو لله وقارًا في أصحاب نبيه ﷺ الذين آزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وصبروا على شدائد المحن ولأواء البلاء، لا سيما الرعيل الأول فيهم -وعثمان بن

مظعون من سـابقيهم- أن يصف أحدهم بألفاظ سوقية جافية وهم الأعلون في كمال النعوت والصفات؟

وأي منقصـة يعير بهـا هذا الصحابي المتنظـف المتجمل -لو صحـت هذه القصة- في أن يجافي باللبنـة وهو يحملها عن ثوبه، فـإذا وضعها نفض كمه، وهو دائب مع إخوانه في العمل لم يقصر عنهم في شيء.

أما سمية التي كنى ببنوتها ابن مظعون عمارًا -رضي الله عنها- كمـا تقول الرواية- فهي أفضل أمّ لأفضل بيت في الإِسـلام، وهي أول شـهيدة في الإِسـلام، فالكنية بهـا مفخرة المفاخـر، ومنقبة الشـرف والمكارم، وكان رسول الله ﷺ يكني بها عمارًا، ويناديه يا ابن سمية، تنويهًا بفضلها وسابقتها.

وهـل عرف عـن رسـول الله ﷺ أنه يغضب لأمر غير شـرعي؟ وإذا غضب ﷺ لأمر استوجب الغضب شرعًا، فهل عرف عنه ﷺ السـكوت على ذلك، دون أن يفهم من أغضبه خطأه ويرشـده إلى الحق، ويهديه إلى الصواب، هذا ما لم يعرف قط في أخلاق رسول الله ﷺ في تربيته أصحابه.

قال ابن كثير بعد ذكره رجز: لا عيش إلا عيش الآخرة: فيقول رسول الله ﷺ:

لا عيـش إلا عيـش الآخـرة

اللهم ارحم المهاجرين والأنصار

فدخل عمار بن ياسـر، وقد أثقلوه باللبن، فقال: يا رسول الله؟ قتلونـي، يحملـون عليَّ ما لا يحملون، قالت أم سـلمة -رضي الله عنها-: فرأيت رسـول الله ﷺ ينفض وفرته بيده(١٥) -وكان رجلًا جعدًا- وهو يقول: «ويح ابن سمية! ليسوا بالذين يقتلونك؛ إنما تقتلك الفئة الباغية».

وليتأمـل الناظر في تلطف النبـي ﷺ بعمار، وهو ينفض وفرته بيده الشـريفة، أليس ذلك من أرفـع درجات التنظيف والتجميل؟ غير أن هذا أسـمى وأجل مما فعل ابن مظعون بنفسـه، وأخذ عليه -فـي زعـم مرسـل البيهقـي- لأن هذا فعـل رسـول الله ﷺ: بيده الشريفة بمن يستصفي من أعلياء أصحابه، وهم أحباؤه وأصفياؤه والمقربون إلى قلبه الأطهر الرحيم.

ثـم علق ابن كثير على حديث أم سـلمة فقـال: هذا منقطع من هذا الوجه، بل معضل بين محمد بن إسـحاق وبين أم سـلمة، وقد وصله مسـلم في صحيحه من حديث شـعبة عن خالد الحذاء، عن سـعيد والحسن ابني أبي الحسـن البصري عن أمهما خيرة، مولاة أم سـلمة عن أم سـلمة، قالت: قـال رسـول الله ﷺ: «تقتل عمارًا الفئة الباغية» ورواه مسـلم من حديث ابن علية، عن ابن عون، عن الحسـن، عن أمه، عن أم سـلمة، قالت إن رسول الله ﷺ قال لعمار

(١٥) الوفرة: ما نزل من الشعر على الأذنين. (المجلة)

وهو ينقل الحجارة: «ويح لك يا ابن سمية! تقتلك الفئة الباغية» وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الحسن، يحدث عن أمه، عن أم سلمة قالت: لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المسجد جعل أصحاب النبي ﷺ يحمل كل واحد منهم لبنة، لبنة، وعمار يحمل لبنتين، لبنة عنه، ولبنة عن رسول الله ﷺ، فمسح النبي ﷺ ظهره وقال: «ابن سمية للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن، وتقتلك الفئة الباغية».

قال ابن كثير: وهذا إسناد على شرط الشيخين، وليتأمل النظار بعين الإنصاف في هذه الروايات التي ساقها ابن كثير وأكثرها عن الحسن البصري صاحب مرسل البيهقي ليجدها خالية عن الرجز وقصته، وهي روايات أثبت سندًا من مرسل الحسن عن البيهقي وقد عرفتَ أن بعضها على شرط الشيخين، وكل ذلك مما يضعف قصة مرسل الحسن عند البيهقي، وينفي أن تكون آفته من الحسن، لأن روايات ابن كثير الصحيحة أكثرها عن الحسن من طريق أمه خيرة مولاة أم سلمة أم المؤمنين -رضي الله عنها-.

وفي رواية مسلم عن أبي سعيد أن قول النبي ﷺ لعمار: «وتقتله الفئة الباغية» كان في حفر الخندق، وهذه الرواية من أقوى ما يدل على وَهْي مرسل الحسن عند البيهقي الذي ذكرت فيه القصة ورجزها، لأنها من إخراج الصحيح، فهي أرفع سندًا من جميع ما روي في قتل الفئة الباغية عمارًا.

وقد استشكل البيهقي رواية مسلم، وحكم فيها بالوهم، فقال: ويشبه أن يكون قوله في حفر الخندق وهمًا. وهذا عجيب جدًا من الإمام أبي بكر البيهقي في فضله، وسعة علمه، ودرايته بعلوم السنة والحديث!! ثم قال البيهقي: أو أنه -أي رسول الله ﷺ- قال ذلك في بناء المسجد، وفي حفر الخندق، ولم يبين البيهقي وجه استشكاله حتى يحتاج إلى ادعاء الوهم في رواية الصحيح، لردها وتقديم غيرها عليها، إذ لا يلزم أن يكون هذا الإخبار المعجز لعمار «تقتلك الفئة الباغية» قد قيل في بناء المسجد، وليس هنا ما يمنع أن يكون قد قيل في حفر الخندق، كما ثبت في رواية مسلم، وحيث جاء النص بأصح سند أنها قيلت في حفر الخندق وجب المصير إليه، وقد جوز البيهقي أنها قيلت مرتين، مرة في بناء المسجد، ومرة في حفر الخندق، وهذا تجويز ضعيف، لا تقتضيه ضرورة.

فالقصة ورجزها ضعيفة الثبوت، واهية الإسناد، ما كان ينبغي أن يطنطن بها، وهي تذكر صاحبين جليلين من طلائع السابقين الأولين، الذين أدبهم الله بأدب النبوة المطهرة ورباهم في حضنها بما لا يليق بمكانتهما.

ولولا خشية أن تكون هذه القصة مدعاة إلى تناول الصحابة -رضي الله عنهم- بما لا ينبغي من رعاية الأدب، وأدب الرعاية ممن لا يعرف للصحابة -رضي الله عنهم- قدرهم، ويقدر لهم

مكانتهم، ويعرف لهم منتهم في عنق كل مسلم؛ لأنهم هم الذين هدانا الله بهم إلى الإسلام والإيمان، وهم الذين نقلوا إلينا الهدى والنور والعلم والمعرفة والأدب، لأضربنا عنها صفحًا، تنزيهًا لكتابنا في شرف موضوعه، وتنزهًا عن نشرها فيه.

ولا يغترن أحد بما جاء في بعض روايات الأحداث من ألفاظ متحاملة لا تتفق وما عرف عن سمت الصحابة وأخلاقهم وآدابهم في القول والعمل؛ لأن هذه الروايات -وإن صح سند بعضها- فهي متزيدة بمداد الحماسة والاسترسال من بعض الرواة، وقد نبه العلماء على ذلك، وأبى كثير من حذاق الرواة المحدثين ذوي الإخلاص والورع أن يذكروا ما جاء في ألفاظها من جفوة التعبير.

ولو أدرك التوفيق الرواة الذين يتساهلون في نقل كل ما يسمعون من ألفاظ نابية فتمثلوا قدر الصحابة ومنزلتهم من الإسلام وتاريخه وهدايته وتبليغ دعوته لاقتصروا على لب المعنى من الحقائق التي تقصد إلى تحقيقها الأحاديث والآثار مما ثبت لهم طريقه وصح سنده.

وأتم الله -تعالى- على رسوله ﷺ وعلى أمته نعمته العظمى بإتمام بناء أفضل مسجد، بناه أفضل نبي مرسل بأفضل دين، وكان بناء هذا المسجد الأطهر بناء متعبد تكنفه البساطة، وتسوده السماحة الفطرية، ويحوطه النور من أقطاره، وتحف به الهداية من جوانبه، وجعل ذرعه مربعًا مائة ذراع طولًا، في مائة ذراع عرضًا،

أو أقل قليلًا، وجعل سقفه جريد النخل المطين، وكانت قبلته إلى بيت المقدس، وهي من جذوع النخل، وكذلك عمده التي يعتمد عليها سقفه.

وفي (روض) السهيلي: وجعلت قبلته من اللبن، ويقال: بل من حجارة منضودة، بعضها على بعض، وجعل له ثلاثة أبواب، وأسس بالحجارة داخلة في باطن الأرض، نحو ثلاثة أذرع.

قال ابن بطال: وهذا يدل على أن السنة في بناء المسجد القصد، وترك الغلو في تحسينه، فقد كان عمر مع كثرة الفتوح في أيامه وسعت بيت المال عنده لم يغيره عما كان عليه، وفي دلائل البيهقي عن عبادة من طريق يعلى ابن شداد بن أوس: أن الأنصار جمعوا مالًا، فأتوا به النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ابن لنا هذا المسجد، وزينه -أي جدد لنا بناءه وزخرفه- إلى متى نصلى تحت هذا الجريد؟ فقال ﷺ: «ما لي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى» وفي مرسل شهر بن حوشب: لما أراد النبي ﷺ أن يبني المسجد: قال: «ابنوا لي عريشًا كعريش موسى، ثمامات، وخشبات، وظلة كظلة موسى، والأمر أعجل من ذلك» قيل: وما ظلة موسى؟ قال: «كان إذا قام أصاب رأسه السقف» فلم يزل المسجد كذلك حتى قبض رسول الله ﷺ.

قال الزرقاني في شرح (المواهب): وذكر في (الأوج) أن قامة موسى وعصاه ووثبته سبعة أذرع، فهو تشبيه تام لأنه جعل ارتفاع

المسـجد سـبعة أذرع، وقد ذكر ابن كثير: أن قامة موسى وعصاه ووثبته عشرة أذرع.

ولا معارضة بين مرسل ابن حوشب وما ثبت في الصحيح من أن جدران المسجد بنيت باللبن، لأن المراد في مرسل ابن حوشب النص على البساطة في بنيان المسجد وعدم التأنق والزخرفة في بنائه، وهذا متحقق في وصف البناء الذي ورد في الصحيح.

وأما ما ورد عند ابن عائذ أنه ﷺ صلى في المسجد وهو عريش اثنى عشر يومًا، ثم بناه وسقفه، فالمراد به ما كان في المربد قبل أن يبنى المسجد النبوي من مصلى أقامه أسعد بن زرارة كان يصلي فيه بأصحابه ويجمع لهم قبل أن يصل النبي ﷺ إلى المدينة، ويدل لذلك حديث النوار، أم زيد بن ثابت قالت: أنها رأت أسعد بن زرارة قبل أن يقدم النبي ﷺ يصلي بالناس الصلوات الخمس، ويجمع بهم في مسجد بناه في مربد سهل وسهيل، قالت النوار: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ لما قدم صلى بهم في ذلك المسجد، وبناه فهو مسجده، قال الزرقاني فإن صح حديث النوار فكأنه ﷺ هدم بناء أسعد وزاد فيه، أو زاد بدون هدم لضيقه عن المسلمين، وهذا التأويل الذي ذهب إليه الزرقاني لا ينافي ما ثبت في الصحيح عن بناء المسجد النبوي.

وقد ظل المسجد على الحال التي بناه عليها رسول الله ﷺ من البساطة وعدم التزيين والزخرفة حياة رسول الله ﷺ وحياة أبي

بكـر الصديق رضي الله عنه، وحياة عمر، وإن كان قد وسـعه عمر وزاد فيه، لكنه بناه على بنيانه في عهده ﷺ وأعاد عمده خشبًا.

فلما تولى عثمـان رضي الله عنـه زاد فيـه زيـادة كبيرة وبناه وحسنه، ففي حديث ابن عمر عند البخاري وأبي داود أن المسجد كان على عهده ﷺ مبنيًا باللبن وسـقفه الجريد، وعمده خشـب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئًا، وزاد فيه عمر، وبناه على بنيانه في عهد رسـول الله ﷺ، وأعاد عمده خشـبًا، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة، وجعل عمده حجارة منقوشـة وسـقفه بالسـاج، وحسـنه بمـا لا يقتضي الزخرفة، ومع ذلك أنكر عليه بعض الصحابة، ففي صحيح مسلم أن عثمـان رضـي الله عنـه أراد بناء المسـجد، فكـره الناس ذلك، وأحبوا أن يدعه على هيئته.

ثـم بنى رسـول ﷺ بيتين إلى جنب المسـجد، بيتًـا لزوجه أم المؤمنين سـودة بنـت زمعة -رضي الله عنها- وبيتًـا لأم المؤمنين عائشـة -رضي الله عنها- اسـتعدادًا للدخول بها، لأنه ﷺ كان قد عقـد عليهـا بمكة، قال ابن شـهاب الزهري -كمـا رواه أبو عمر في الاسـتيعاب- إن النبي ﷺ تزوج عائشة بنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنهما- في شـوال سـنة عشـر من النبوة، قبل الهجرة بثلاث سـنين، وعرس بها في المدينة في شـوال على رأس ثمانية عشر شهرًا من مهاجره إلى المدينة.

وذهب ابن حجر إلى أنه ﷺ دخل بها في شوال من السنة الأولى للهجرة، وذكر رواية ابن سعد عن الواقدي إن عائشة -رضي الله عنها- قالت: أعرس بي على رأس ثمانية أشهر.

وكان ما بناه رسول الله ﷺ من البيوت لزوجاته على نهج بناء مسجده في البساطة، مبنية باللبن وسقفها جذوع النخل والجريد، وقد روى السهيلي عن الحسن بن أبي الحسن البصري قال: كنت أدخل بيوت النبي ﷺ وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي.

وقال الواقدي: كان لحارثة بن النعمان منازل قرب المسجد وحوله، فجعل كلما أحدث النبي ﷺ أهلًا نزل له حارثة عن منزل بقدر حجرة حتى صارت منازل حارثة كلها لرسول الله ﷺ.

ولما أمر الوليد بن عبد الملك بهدم بيوت أمهات المؤمنين، وإدخالها في المسجد وكتب بذلك إلى واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز فهدمت بكى الناس وحزنوا، وقال سعيد بن المسيب: ليتها تركت ليراها الناس فيزهدوا في التكاثر والتفاخر.

وقال أبو أمامة سهل بن حنيف: ليتها تركت ليرى الناس ما رضي الله لنبيه ﷺ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده!!

مقاصد بناء المسجد الأعظم في دار الهجرة:

قدمنا أن النبي ﷺ مكث بمكة بعد بعثه رسولًا نبيًا ثلاثة عشر عامًا، مرت كلها عليه وعلى طلائع الإيمان برسالته في كفاح

مرير، ونضال صبور، وهو ﷺ يؤسس عقيدة التوحيد، وإخلاص التعبد لله وحده، ويقيم صرحها الشامخ، متوحدة بالدعوة إليها، لا يخلطها بغيرها من شرائع الحق والهدى، وبراهينها تتوالى، وأدلتها تتتابع، وحججها تتوارد، وآياتها تتنزل، تثبيتًا لقواعدها وتشييدًا لأصولها، وتوطيدًا لدعائمها، وترسيخًا لأركانها، وتركيزًا لمساندها، لأنها هي لب لباب دعوته ودعوة جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين.

ولكن ذلك لم يلق من أحلاس الوثنية البليدة(١٦)، وأراذل ملأ الشرك والجحود إلا عنادًا عتيًا، وفجورًا في الكفر لم ينالوا من ورائه إلا خذلانًا قهر جبريتهم المستكبرة، وكسر شوكتهم الظالمة، وخضد شِرَّتهم المتهاوية(١٧)، وفل عزائمهم المتهافتة، وغمز قناتهم المتآكلة، وأمال رءوسهم على صدورهم ومناكبهم، وأرعب قلوبهم، وزلزل أقدامهم، وهد أركان غرورهم، وطمأن من تعاليهم، وأذل بأوهم، وهتك عنجهيتهم، وحرق أكبادهم، وأورثهم غيظًا أذاب أفئدتهم وخلع عليهم عارًا لم يمحه إلا ذرية من بعدهم، نبتت بذورها منهم في رياض الإيمان والهدى والنور، فاستنارت قلوبهم، وأشرقت عقولهم، فعلموا أن الحق لله وحده، واستشعروا الإيمان بكل ما كفر به آباؤهم، وحملوا بعد ما علموا

(١٦) الحلس: كل ما ولي ظهر الدابة تحت الرحل، ويستعار للملازمة. (المجلة)
(١٧) الشِّرَّة: الحدة والعنفوان. (المجلة)

لـواء دعوة الحق خفاقًا في الآفاق مهديين هاديين، داعين إلى الله، مجاهديـن، ففتح الله علـى أيديهم القلوب والعقول، واسـتنقذوا البشـرية مـن أوحال الشـرك، وخبـال التظالم الاجتماعـي، ونير الجهالة الفكرية، والاستعباد البشري، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾

(محمد: ٣٨)

وإذ يقول عز شـأنه: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(المائدة: ٥٤)

ولمـا لم يبق في هؤلاء المشـركين من أخابث ملاحدة الوثنية، ومَنْ حولهم ممن يقتدون على آثارهم بصيصُ أمل، وكانت الدعوة إلى الله وتوحيده قد بلغت من أرض العرب آفاقًا متباعدة، وتسـامع بها النـاس في مضـارب قبائلهم ومحافل مواسـمهم وأسـواقهم، وشـغلت من تفكيرهم وحياتهم حيـزًا يقومون ويقعدون به، وهم ما بين قليل مقبل لا ينكر وكثير منكر وهو مدبر ومتحير أبلس في حمأة الشك، لا يتقدم ولا يتأخر -فتح الله لنبيه ﷺ أبواب الفرج، وآتـاه زمـام النصر، فأذن لـه أن يهاجر بدعوته إلى جو تتنسـم فيه الدعوة نسائم الرجاء والأمل، وأراه دار هجرته، بعد أن جعل له من أهلها جندًا لرسـالته وقدم له بيعتهم على احتضان دعوته بما فيها

من عض السيوف، وقتل الأبطال، ونهك الأموال، وعداوة الأبيض والأسود، والرضا بموعود الله لهم من جزيل الثواب وعظيم المآل في جنة عرضها السموات والأرض.

وهاجر إليهم ﷺ بعد أن اطمأن على هجرة أصحابه قبله، الذين استقبلهم إخوانهم الأنصار بأصدق الحب وأوفى الوفاء.

ولم يكد رسول الله ﷺ يطأ أرض المدينة المنورة بقدمه الشريفة وينزل رحله في دار أبي أيوب الأنصاري ويتنفس أنفاس الراحة من أعباء سفر الهجرة، ذلك السفر الطويل الشاق - حتى بدأ يفكر ويعمل منذ اللحظة الأولى في بناء مسجده الأعظم.

وكان بروك القصواء -وهي مأمورة- في مربد سهل وسهيل يتيمي بني النجار، ورسول الله ﷺ على ظهرها مرخ زمامها لا يثنيها ولا يكفها، ولا ينهنهها ولا يقيمها ولا ينيخها، إيذانًا إلهيًا بأن هذا المربد هو المستقر والمستودع، وهو مكان المسجد الأعظم، ومنازل رسول الله ﷺ، وبيوت أزواجه أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن-.

وبدأ رسول الله ﷺ بالسؤال عن المربد (لمن هو)، فأخبر أنه ليتيمين من بني النجار، في حجر بعضهم، وأرسل إلى بني النجار، فحضروا وفيهم الغلامان سهل وسهيل، فقال ﷺ: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا» أي أخبروني بثمنه الذي يرضيكم، فأرادوا أن يعطوه لرسول الله ﷺ هبة بغير ثمن، وهم يُرضون الغلامين

سـهلًا وسهيلًا عن ثمنه، فأبى رسول الله ﷺ أن يأخذه إلا بالثمن، واشتراه، ودفع ثمنه من مال أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ولـم يمهل ﷺ في العمل، بل بدأ مع أصحابه في تسـوية أرض المربـد وقطع ما فيه من النخيل والأشـجار، وأعدهـا للبناء، وأمر ﷺ بعمـل اللبـن فعُمـل، ونقلـه مع أصحابـه، مع نقـل الحجارة والتـراب، وحفروا أساسـه في باطن الأرض، وعيـن ﷺ قبلته إلى بيـت المقدس، ونصب فيها جذوع النخل لتكون معالم لها وابتدأ البناء، وهو ﷺ يعمل فيه بنفسه الشريفة كأقوى وأنشط ما يكون العمل، يحمل اللبن، وينقل الحجارة، ويقف بنفسـه يُشرف على العمل كله، يرشد وينصح، ويوجه ويسدد، يرى خلط الطين للبناء فـلا يعجبه عمل عاملـه، فيخصص له من هو أهلـه وحاذقه (طلق بـن علي اليمامـي الحنفي) ويقـول: «قربوا اليمامـي من الطين، فإنه أحسـنكم له مسيسًـا» وفي رواية: «دعوا الحنفي والطين فإنه أضبطكـم للطين» ويسـأله طلق أن ينقل كما ينقلـون، فيقول له: «لا، ولكن اخلط لهم الطين، فأنت أعلم به».

ويشـارك ﷺ أصحابه في إنشـادهم الأراجيز والأشعار، ويرفع صوتـه بمقاطعهـا وهزجها، شـحذًا لهممهـم، وإذهـاب الملالة والسـأم عنهم، وتحبيـب العمل إلى نفوسـهم، وترغيبًـا لهم في أفضل الأعمال، وأشـرف منازل الخير والهدى والنور، وتشـجيعًا لهـم على الـدأب ومواصلـة العمل في تأسـيس وإنجـاز ما يجمع

كلمتهم، ويؤكد وحدتهم، وتقوية عزائمهم على المضي قدمًا في إقامـة منابع نشـر الدعـوة، ولفت أنظارهم إلى مـا يجب أن تكون لـه الصـدارة من الأعمـال في حياتهم أمـة تدعو إلـى الخير وتأمر بالمعـروف وتنهى عن المنكر، هادية رائدة وقائدة للإنسـانية في مسـتقبلها، وتعويدًا لهـم على تحمل المشـاق، وخوض غمرات الصعاب في سـبيل إقامـة عظائم الأعمـال، لتكون هـذه العظائم هداياهـم إلى الحيـاة، بعد أن أراهم ﷺ ذلك كلـه رأي أعينهم في مشاركتهم جميع ما يتطلب البناء من عمل وجهد.

لـم تكـن عناية رسـول الله ﷺ الفائقـة ببناء مسـجده الأعظم منذ اللحظـة الأولى التي وطئت فيها قدمه الشـريفة أرض المدنية المنورة، هذه العناية التي بلغ من شأنها في الاهتمام والتقديم على أي عمل من الأعمال التأسيسية في مستقره ودار هجرته، ومأرز(١٨) رسالته، وموئل دعوته، وعاصمة أمته، وقاعدة جهاده - لمجرد أن يكون هذا المسـجد الأعظم مصلى، تقـام فيه الجماعة والجمعة، أو مجـرد متعبـد للمؤمنيـن، يأتون إليه فـي تعبداتهـم، صلاة أو ذكرًا وتسـبيحًا؛ لأن الإسلام في سماحته وسمو مقاصده، وعموم دعوته، ويسـر شـرائعه وأحكامه لا يعـرف التصومع للعبادة؛ لأن الأرض كلها، مشـارقها ومغاربها، حاضرهـا وباديها موئل للصلاة

(١٨) أَرَزَ: اجتمع. والمأرِز: المأوى. (المجلة)

والتعبد لله تعالى بذكره وتقديسه، فالمؤمن يعبد الله -تعالى- في كل مكان من الأرض في ظل ما جاء به هذا الدين الحنيف من أحكام التعبد وشرائعه.

وقد قال النبي ﷺ فيما خصه الله به من خصائص التكريم والتيسير على أمته: «جعلت لي الأرض مسجدًا» وكان ﷺ يصلي حيث أدركته الصلاة من أرض الله، وهو ﷺ الأسوة المتبعة لأمته أينما كانوا من أرض الله تعالى، فالمسلم يصلي حيث أدركته الصلاة، لا يتقيد في أداء فرائضه من الصلوات وسائر التعبدات بمكان معين، أو ببناء خاص، فهو يصلي في مصنعه ومزرعته، ومتجره ومدرسته، وبيته ومسجده، وحيثما نزل في سفره.

المقصد الأول من بناء المسجد الأعظم:

وإنما كانت هذه العناية العظمى من النبي ﷺ بالبدء في تأسيس وبناء هذا المسجد الأعظم منذ اللحظة التي ألقت فيها (المأمورة) بجرانها، ورزمت إيذانًا بأن الأمر الإلهي انتهى بها إلى مستقرها، فنزل عنها رسول الله ﷺ وقال: «ها هنا المنزل إن شاء الله» - لأن حاجة الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة والسير بها قدمًا في طريق هدايتها كانت تقتضي اقتضاء لازمًا لا ثنية فيه؛ أن يكون للدعوة مكان عام يتناسب مع عمومها وخلودها، تأرز إليه، ويأوي إليه حملتها في صدرهم وورِدهم، يتساوون فيه، لا يملك

أحد من الناس فيه شيئًا، ولا يحجر على مؤمن دخوله والتعبد فيه آناء الليل ولحظات النهار، ولا يمنع مؤمن من التعلم فيه والتعليم في زواياه وأرجائه ورحابه.

مكان تملكه أمة الإسلام حيثما كان أفرادها وجماعاتها، ويحمي هذه الملكية العامة رسول الله ﷺ ويصونها ما دام بين ظهراني أمته، فإذا فارقها إلى الرفيق الأعلى انتقل واجب هذه الصيانة إلى القائم على أمته من بعده.

ولأن الضرورة في الاستقرار كانت تقتضي اقتضاءً لازمًا أن يكون لرسول الله ﷺ مكان عام يتسع له ولأصحابه والقادمين عليه طلبًا للهداية ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته، يتلقى فيه الوحي، وتتنزل عليه فيه آيات الله، فيتلوها على أصحابه في جموعهم التي تفوق حد التواتر القطعي الذي لا يحتمل الريب، ليتفقهوا في حقائقها ومعانيها ويقفوا منه ﷺ على مقاصدها ومراميها، ليبلغوها إلى الناس كما سمعوها، لتصير فيما بينهم وبين من بلغته عنهم عملًا يتكيفون به في سلوكهم.

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازمًا أن يكون للمجتمع المسلم الجديد مكان عام يجتمعون فيه إذا دعت الأحداث إلى مشاورات في مهمات الأمور، التي تعتور الدعوة وهي ماضية في سيرها.

المقصد الثاني:

والشورى دعامة من دعائم هذا الدين الحنيف، دين الإسلام والتوحيد والسلام سنها رسول الله ﷺ لتكون نهج أمته في حياتها من بعده، ليقيها مغبة الاستبداد الفردي، وأسواء التظالم والبغي، لأن الأمة إذا أقامت حياتها على التشاور فيما ينوبها سلم لها مستقبلها، واستنارت طريقها للخروج من مزالق الأحداث ومضائق الأزمات.

المقصد الثالث:

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازمًا أن يكون للمجتمع الجديد مكان عام يدرس فيه العلم بأوسع وأعم معانيه، ليشمل العقيدة وبراهينها، ويشمل التعبد وأحكامه، ويشمل نظام الحياة في المعاملات ليقوم الناس فيها بالقسط، ويشمل سياسة الأمة وعلاقاتها مع بعضها أفرادًا أو جماعات، أو مع غيرها حكومات وشعوبًا، ليواكب هذا المجتمع الحياة في سيرها وأطوارها، حتى لا تتخلف قافلة الإسلام ومجتمعه عن سائر قوافل الحياة.

وهذ المجتمع الإسلامي مكلف أن يأخذ بيده زمام موكب الحياة، يقودها بهدايته التي ترتكز على قوائم العدل والإخاء،

وهـذا هـو منبـع خيرية أمـة الإسـلام التي امتـن الله بهـا على هذا المجتمـع المسـلم الجديـد باعتبـاره نـواة يخرج منها باسـقات الخيـر والنـور والهدى في قوله تعالـى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٠)

وهـي التي كلفوها في حياتهم ضمانًا لتحقيق هذه الخيرية في قولـه تعالـى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤)

المقصد الرابع:

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازمًا أن يكون لهذا المجتمع المسـلم الجديد الذي يتسع ويتزايد ويتعاظم كما وكيفًـا مكان عام جامع يأوي إليه الغريـب الذي أقدمته الرغبة في الهدايـة، ويأوي إليه الفقير الذي ليس له ما يكنه ولا ما يأوي إليه من مسـكن، والمسكين الذي لا يجد ما يسد خلته ممن ليس لهم رغبـة في الدنيا والتنافس على حطامهـا وزخارفها، ولكنهم تبتلوا إلـى الله، وانقطعوا لعبادته، وتعلـم العلم وتعليمه، من الذين قال الله فيهـم:

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾

(الكهف: ٢٨).

وقد جعلت لهم في المسجد الأعظم ظلة يأوون إليها، وهم ضيوف الإسلام، إذا جاءت للنبي ﷺ صدقة أعطاها لهم خالصة، وإذا جاءته هدية نال منها وأعطاهم سائرها، وكان أعيان الصحابة يتنافسون في الإحسان إليهم وإطعامهم، فكان الرجل من ذي الوجد يذهب بالرجل والرجلين من هؤلاء المنقطعين إلى الله، وكان سعد بن عبادة يذهب بثمانين منهم كل ليلة يطعمهم ويكرمهم.

وكانوا يقلون ويكثرون حسب طوارئ الحياة، وهم المعروفون بأهل الصفة، وفي البخاري من حديث أبي هريرة قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا الأكسية في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساق ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته.

قال ابن تيمية كما حكاه عنه ابن حجر في الفتح: جملة من أوى إلى الصفة مع تفرقهم قيل: أربع مئة، وقيل: أكثر.

المقصد الخامس والسادس:

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازمًا أن يكون

لهـذا المجتمع الجديد مكان عام لا يضيق عن إيواء جريح كتائب الله وجنـده في معارك الجهاد في سـبيل الله لإعلاء كلمته، ليكون هذا الجريح قريبًا من رسـول الله ﷺ ليعوده متى شـاء، وينظر في أمره، ويقوم بحاجته، لأنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وكان من هؤلاء الجرحى سـعد بن معاذ سـيد الأوس، فقد رماه بن العرقة بسـهم أصـاب أكحله، وذلك في غـزوة الخندق، قبيل قريظـة، فأمر النبي ﷺ بضرب فسـطاط له في المسـجد، قال أبو عمـر بن عبـد البر فـي الاسـتيعاب: وكان رسـول الله ﷺ قد أمر بضرب فسـطاط في المسـجد لسعد بن معاذ، فكان يعوده في كل يوم، حتى توفي سنة خمس من الهجرة، بعد الخندق بشهر، وبعد قريظـة بليـال، بعد أن حكّمه رسـول الله ﷺ فيهـم، فحكم فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

المقصد السابع:

ولأن الضـرورة الاسـتقرارية كانـت تقتضـي اقتضـاء لازمًا أن يكـون لهـذا المجتمـع المسـلم الجديد مـكان عام يتسـع لقادة كتائب الجهاد، وعقد الألوية، وتسمية القادة، وتسيير الجيوش، وعقد رايات الدعاة إلى الله لنشـر الهداية وتبليغ الرسـالة، ونشـر العدالة الاجتماعية والإخاء والمحبة بين الأفراد والأمم والشعوب،

وإخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمعرفة.

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازمًا أن يكون لهذا المجتمع المسلم الجديد مكان ينبعث منه بريد الإسلام بالأخبار والإمدادات الروحية والمادية، وتخرج منه رسائل القائد الأعظم إلى قادة الجيوش وأمراء الولايات لتبيين حكم شرعي، أو إخبار بتدبير سياسي أو حربي، أو عقد معاهدة صلح أو هدنة حرب، ويُتلقى فيه بريد المجاهدين ورسل القادة ببشائر النصر أو طلب العون والمدد، وتستقبل فيه أموال الغنائم لتقسم بين مستحقيها، ويستقبل فيه وفي رحابه الأسرى ليقضي فيهم رسول الله ﷺ بما أراه الله، ليتأسى به من بعده خلفاؤه الراشدون، حتى يكون المجتمع المسلم كله على علم تام بأحوال جيوشه وولاياته وسائر ما يجري في شأنه، ويعرف مدى ما تبلغه الدعوة إلى الله في انتشارها، ومدى استقرارها في القلوب والعقول ليأخذ لكل أمر عدته.

ولأن الضرورة الاستقرارية كانت تقتضي اقتضاء لازمًا أن يكون لهذا المجتمع المسلم الجديد مكان عام تراقب منه حركات أعداء الإسلام الظاهرين من المشركين واليهود وتجمعاتهم للوثوب عليه، والأخفياء من المنافقين ومرضى القلوب وتبييتاتهم أسوأ المكر وأخبث الكيد لهذا الدين الذي كان غصة في حلاقيمهم،

وهـؤلاء وأولئك منبثون في الداخل والخارج، لا يألون المسـلمين خبـالًا وعنتًا، يخونون عهودهـم ويغدرون بهـم، ويتربصون بهم الدوائـر، ويتحينـون لهم الفـرص للإيقاع بهـم والوثوب عليهم، ليتخذ قادة المسـلمين حذرهم، ويتقوا خياناتهم وغدرهم وأسـوأ تدابيرهم، لحماية المجتمع المسلم، ودفع الضرر عنه.

فهذا المسـجد الأعظم إنما بدأ بتأسيسـه وبنائه رسول الله ﷺ أول ما بدأ من عمل في مستقره ودار هجرته في مطلع مقدمه ليكون نموذجًا يحتذى في بساطة المظهر، وعمق وعموم المخبر، ليحقق به أعظم الأهداف، وأعمها بأقل النفقات وأيسر المشقات.

إجمال وتلخيص لمقاصد بناء المسجد الأعظم:

فهو قد أنشئ ليكون متعبدًا لصلاة المؤمنين وذكرهم لله تعالى، وتسبيحهم له، وتقديسهم إياه بحمده وشكره على نعمه عليهم، يدخله كل مسلم ويقيم فيه صلاته وعباداته، لا يضاره أحد، ما دام حافظًا لقداسته ومؤديًا حق حرمته.

وهو قد أنشـئ ليكون ملتقى رسول الله ﷺ بأصحابه والوافدين عليـه، طلبًا للهدايـة ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسـالته، وليكـون مهبطًـا للوحي وتنزلاتـه بآيات الله وشـرائعه وأحكامه، وعلومـه ومعارفـه الإلهيـة، التي ينبثـق منها كل علـم نافع، وكل معرفة هادية.

وهو قد أنشئ ليكون جامعة للعلوم والمعارف الكونية والعقلية والتنزليـة، التي حـث القرآن الكريـم على النظر فيهـا، وليكون مدرسة يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم وثمرات عقولهم، ومعهدًا يؤمـه طـلاب العلم من كل صـوب ليتفقهـوا في الديـن ويرجعوا إلـى قومهم مبشـرين ومنذرين، داعين إلـى الله هادين، يتوارثونها جيـلًا بعد جيـل، وزمنًا بعد زمـن، ومكانًا عن مـكان، فهو البؤرة المشـعة بالنـور على أرجـاء الأرض ورحابها وسـاحاتها بمن فيها ومـا فيها ينشـر التربية الاسـتقلالية التي لا تذيـب الفرد في أتون المجتمـع، ولا تهمل المجتمع وهو صورة مـن الأفراد الذين عني الإِسـلام بتربيتهم بمعارفه وعلومه، تلـك التربية التي تعتمد على الوحـي المنزل من عنـد الله الحكيم الخبير، ثم هي لا تغفل العقل وراء ذلـك، والتي تهذب النفس وتعلي الغرائز ولا تقتلها، وتنمي الوجدان والعواطف والإِخاء الودود.

وكان النبي ﷺ في حياته الشريفة بين ظهراني أصحابه، يعلمهم ويهديهم ويرشدهم ويوجههم، يعلمهم الكتاب والحكمة، ويأخذ بهـم في تطبيق ما علمهم إلى واقع العمل والسـلوك، حتى تتكيف أنفسهم بما علمهم ليكون كل واحد منهم صورة حية لهداية الإِسلام

وعلومــه ومعارفه وآدابه وأخلاقه وسياســاته ونظمه في الحياة على شــتى مناحيها، تمشــي على الأرض، يراها الناس ويشيرون إليها، بما تترجمه أحوالهم بأنهم جميعًا دعاة الخير ورسل الهداية.

وهذا المســجد الأعظم قد أنشئ ليجد فيه الغريب مأوى، وابن السبيل مستقرًا لا تكدره منة أحد عليه، فينهل من رفده ويعب من هدايته ما أطاق اســتعداده النفسي والعقلي، لا يصده أحد عن علم أو معرفة أو لون من ألوان الهداية، فكم من قائد تخرج فيه، وبرزت بطولته من بين جدرانه، وكم من عالم استبحر علمه في رحابه، ثم خــرج بــه على الناس يروي ظمأهم للمعرفــة؟ وكم من داع إلى الله تلقى في ســاحاته دروس الدعوة إلى الله فكان أسوة الدعاة، وقدوة الهداة، وريحانة جذب القلوب شــذاها فانجفلت إليها تأخذ عنها الهداية لتستضيء بأنوارها؟

وكم من حكيم أوتي في ظله الحكمة، وهو ينشرها على الناس في بســمته وأدبــه وخلقه، الكلمة الطيبة هي بريــده إلى القلوب، والبســمة الحلوة هي طريقه إلــى العقول، والإشــراقة المنيرة هي معراجه إلى الأرواح، فكان نموذجًا للمربي لعلمه وعمله وسلوكه وخلقه وآدابه. وكم من سياسي كان قبل أن يدخل إلى رحابه راعي إبــل أو ســارحًا بغنم، فلمــا وصل إليه وبهره نــوره ألقى على رماله

وحصواتــه عصا التســيار، وخاض لجج البحث، فــكان منه العاقل الدهيّ، والسياســيّ الحاذق الذي يظن الظن فــإذا هو حق اليقين، فكان من قادة العقول في أمة الإسلام.

وكم مــن أعرابي جلف لا يفرق بين الأحمر والأصفر وفد عليه فدخله، ورأى أصحاب رسول الله ﷺ حوله هالة تحف به، يسمعون منه وكأن على رءوســهم الطير، فســمع معهم، وكانت عنده نعمة العقل مخبأة تحت ســتار الجهالة، فانكشف له غطاء عقله، فعقل وفقه، واهتدى واســتضاء، ثم عاد إلى قومــه إمامًا يدعوهم إلى الله ويربيهم بعلمه الذي علم، وســلوكه الذي سلك، فآمنوا بدعوته، واهتدوا بهديه، فكانوا سطرًا منيرًا في كتاب التاريخ الإسلامي.

وهذا المسجد الأعظم أنشئ ليجد فيه الفقير والمسكين ملجأ يلجأ إليه في أمن واستقرار نفسي وحسي، يرزقه الله فيه على يدي نبيــه ﷺ بما يشــاء، وعلى أيدي أهل الفضل والســعة من أصحابه بما يســد خلته، لا يســألون شــيئًا، ولا يطلبون من أحد رفدًا، ولا يتطلعون إلى عطاء، ولكنهم اعتصموا بالله تعالى، وتبتلوا إليه في محاريب الرضا واليقين، يدعونه بالغداة والعشي، يريدون وجهه، فيرزقهــم من حيــث لا يحتســبون، يخلطهــم النبي ﷺ بعيشــه، ويقاســمهم ما يأتيه مــن الهدايــا، ويخصهم بجميــع الصدقات،

راضية أنفسهم، طيبة قلوبهم، مشغولين بآخرتهم عن دنيا الناس.

وهذا المسجد الأعظم قد أنشئ ليكون قلعة لاجتماع المجاهدين إذا استنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد والدعوة إلى الله، وتخفق فيه فوق رءوس القادة الرايات للتوجه إلى مواقع الأحداث، وفي ظلها يقف جند الله في نشوة ترقب النصر أو الشهادة.

وهو قد أنشئ ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركنًا في زواياه ليكون مشفى يستشفي فيه جرحى كتائب الجهاد، ليتمكن نبي الله ﷺ من عيادتهم والنظر في أحوالهم والاستطباب لهم ومداواتهم في غير مشقة ولا نصب، تقديرًا لفضلهم.

وهو قد أنشئ ليكون مركزًا لبريد الإسلام، منه تصدر الأخبار، ويبرد البريد، وتصدر الرسائل، وفيه تتلقى الأنباء السياسية سلمًا أو حربًا، وفيه تتلقى وتقرأ رسائل البشائر بالنصر، ورسائل طلب المدد، وفيه ينعى المستشهدون في معارك الجهاد ليتأسى بهم المتأسون وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون.

وهو قد أنشئ ليكون مرقبًا للمجتمع المسلم، يتعرف منه على حركات العدو المريبة ويرقبها، لا سيما الأعداء الذين معه يساكنونه، ويخالطونه في بلده من شراذم اليهود وزمر المنافقين،

ونفايات الوثنية، الذين عسوا في الشرك فلم يتركوه[١٩]، ليحذر المجتمع المسلم عاقبة كيدهم وسوء مكرهم وتدبيرهم، ويأمن مغبة غدرهم وخياناتهم.

وهذه كلها مقاصد ضرورية، قصد إليها رسول الله ﷺ حين جعل أول عمل يقوم به منذ لحظة وصوله إلى دار هجرته ومستقره ومستقر دعوته، حيث تنطلق منها رسالته إلى آفاق الدنيا هادية مصلحة، هو بناء هذا المسجد الأعظم، وقد وقعت شواهدها وأمثلتها على مسمع ومرأى من رسول الله ﷺ، وقد كان كل مشهد منها يحتاج إلى بناء خاص ليكون موئلًا لتحقيق مقصدها، ولكن الحياة إذ ذاك لم تكن لتسمح بتحقيق التوسع في الإنشاء والتعمير، لا من جهة الفراغ الزمني ولا من جهة القدرة المادية، فالزمن بجميع ثوانيه ودقائقه ولحظاته، وأيامه وشهوره وأعوامه كانت تستغرقه الدعوة إلى الله، وهي في أمس الحاجة إليه من كل فرد في المجتمع المسلم الناشئ، وأما القدرة المادية فكانت محدودة جدًا بما في أيدي الأنصار من أموال قاسموها إخوانهم المهاجرين وواسوهم بأكثر مما تطيق طبائع البشر عن طيب نفس ورضا منهم، بل آثروهم على أنفسهم، فكان حسب ما كان

(١٩) يقولون: عسا في الشرك، بمعنى: كبر وأسنَّ فيه. (المجلة)

في أيديهم من مال أن يقوم بهذه المكارم.

هـذا إلـى ما هو أهم من ذلك، وهو وضع مبدأ البسـاطة المادية وهو مبدأ قصد إليه رسول الله ﷺ في أول ما قصد، ذلك أنه ﷺ أراد أن تقوم حياة المسـلمين على عدم الزخـرف والفخفخة الجوفاء، والتعمـق في المظاهر؛ ليتفرغ المسـلمون إلـى مهمتهم العظمى فـي هذه الحيـاة، وهي مهمة الدعوة إلى الله ونشـر رسـالة الهدى والنور والخلود، وهداية الضالين وإرشاد التائهين، ورد الشاردين، إنقاذًا للإنسـانية مما هي مرتطمة فيه من ردغ الخبال[٢٠]، وحمأة الرذائل، وشيوع الفساد والظلم.

فكان هذا المسـجد الأعظم في إنشـائه آية من آيات الله العظمى في بساطة مظهره يوم أن بناه النبي ﷺ وجعله ساحة للعمل في نشر الدعـوة إلى الله، كما جعله مجمعًا لتحقيق مقاصده النبيلة العظيمة التي تنبع من منابع الرسالة الهادية كما ذكرناها في غير إيعاب.

ولقـد بلـغ الله -تعالـى- بهـذا المسـجد الأعظم قمـة المجد فـي الحيـاة الجادة التـي انبعثت مـن رحابه، وهو شـامخ الأركان في بسـاطته وتواضع بنائه، ويسـر مدخله ومخرجه، فسـارت من سـاحته الدعوة إلـى الله ترفل إلى أرجـاء الأرض وأقطارها وآفاقها، فتحًا وهداية وإصلاحًا.

---

(٢٠) الردغ: الوحل. (المجلة)

كان إنشاء المسجد الأعظم مصدر إشعاع للهداية:

فمن هذا المسجد الأعظم في مقاصده وأهدافه الذي واكب بها الفطرة الإنسانية في صفائها، بعيدًا عن خدع الحياة وزخارفها وزينتها المترفة وحدت الأمة العربية توحيدًا لم تشهده في تاريخها الطويل، فصارت بعد حياة قبلية مشتتة متقاطعة محتربة، أمة واحدة مسلمة متآخية، مجتمعة الكلمة، حملت ألوية الهداية، وفتحت بها البلاد والقلوب والعقول، وأنقذت البشرية من عبودية الملوك والأباطرة، وقوضت معالم الشرك، وقضت على الوثنية في جميع شكولها وصورها، ووطدت منائر العدل والتآخي بين الأفراد والجماعات.

ومن هذا المسجد الأعظم انبعث الفكر الإسلامي عقيدة وتعبدًا، ونظامًا وهداية إلى أقطار الأرض، علمًا ومعرفة لا تعرف التفلسف الأجوف في صفاء عقيدتها، وبساطة تعبداتها، وعدالة أنظمتها الاجتماعية، واستقامة سلكوها الخلقي، وتهذب آدابها النفسية، ووضوح تفكيرها العقلي في ظل الحرية المهذبة ووحدة الحقوق والواجبات.

بل من هذا المسجد الأعظم قام بناء الأمة الإسلامية شامخًا

متسـاميًا فـي حياتهـا الإيمانية ويقينها الراسـخ بحقائـق الغيب العليا، التي تنزَّل بها وحي الله -تعالى- على سائر أنبيائه ورسله، وهي الحقائق التي لا تقبل التفلسف والتعقيد، ولا يداخلها منطق الغرور في العقـول الجامحة، وفي عقيدتهـا التوحيدية الخالصة، التي لا تشـوبها شـوائب الوثنيات القديمـة أو المحدثة، وثنيات البداوة أو الحضـارة، وثنيات العلم المنطلق بغير ضوابط من دين أو عقـل أو حـدود، وثنيـات العقـول الجامحة التـي لا تثنيها عن جموحها حكمات اللجم في وثبات الغرور.

وفي حياتهـا الفكرية النابعة من إيمانها وتوحيدها وتعبدها لله الواحد الأحد، وحياتها السياسـية التي يقيمها لها العدل بموازين الاستقامة في الحقوق والواجبات.

وحياتها النظامية (المتطورة) مع أطوار الحياة، والأخذ والإعطاء في تبادل المصالح بين الأفراد والجماعات، والأمم والشعوب.

وحياتهـا الاجتماعيـة التـي تعـرف للفـرد حق وجـوده عزيزًا كريمًـا، ولا تغمطـه حـق حياتـه الحـرة الكريمة، والتـي تعرف للمجتمـع حق قيامه أمة وأفـرادًا، يصورون في سـلوكهم حقيقته وطموحه وأهدافه، ومقاصده في الحياة.

وحياتهـا الحضاريـة التـي أقامها هـذا المسـجد الأعظم على

بساطة المظهر، بعيدة عن تعقيدات الترف وزخرف الرغائب الشهوية، وعلى التعمق في المخبر، لتغوص إلى أغوار الحياة وأعماقها تعرفًا على معالمها وأسرارها، مستقلة، لا تتبع ولا تحاكي ولكنها تأخذ، وتعطي أكثر مما تأخذ، لضخامة رصيدها من المعرفة الصادقة والعلم الموجه، وإذا أخذت فإنما تأخذ وهي مرتدية برداء الحرية المهذبة لما في طبيعتها الإيمانية من قوة على هضم الحقائق وتمثيلها إلى ما يوافق استعدادها المحكم.

كل ذلك صنعه هذا المسجد الأعظم لهذه الأمة المختارة لقيادة الإنسانية، فلم تقعد به بساطة بنائه أن جعل من رعاء الشاء سادة ذادة، وقادة أبطالًا، ودعاة إلى الله هداة رادة(٢١)، ملوكًا على الأسرة، يحكمون بما أنزل الله، وعلماء كانوا أساتذة الدنيا فضلًا وعلمًا وعملًا، وخلقًا وسلوكًا واستقامة على الحق.

حتى إذا زخرفت المساجد وخرجت على نمط البساط الذي قام عليه بناء هذا المسجد الأعظم انهارت من الداخل نفوس المترفين، وبخع الأسف نفوس المستضعفين، وتنافس في شهوات التزخرف الفارغون من عواصم الإيمان، وتزيد الجاهلون في تزخرفهم، وتقبلوا في عمارة بيوت الله ومساجده عمارة

(٢١) رادة: جمع، مفرده رائد. (المجلة)

الكنائس والبيع والصوامع، حتى صارت المساجد في أمصار الإسلام وأوطانه حصونًا سامقة، تصك بقاماتها وجدرها متراكم السحاب، ولكنها خاوية خالية، لا تجد لها عُمّارًا من جند الله وعباده، وحملة العلم وطلابه، ودارسي المعرفة وأهلها، فقد هجر هذه الحصون المسجدية المؤمنون وسكنها طائر البوم، ينعق فيها ناعيًا أهلها وعمّارها.

ووقف المد الإسلامي وانحسر سير الدعوة إلى الله، وباء المسلمون بالتخلُّف في مخبرهم، وتحقيق مقاصد إسلامهم الذي ارتضاه الله لهم دينًا، يعتصمون به عن الانحدار في مهاوي الجهالة والاستعباد، وابتعدوا عن الأسوة بنبيهم ﷺ، ومالت رءوسهم على مناكبهم، وناموا نومة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾

(البقرة: ٢٥٩).

فهل آن للمسلمين أن يُبعثوا من مرقدهم، ليعلموا أن الترف والتزخرف سُمُّ الحياة القاتل للأمم والشعوب، لعل وعسى، ولكن أنّى؟ ومتى؟ وكيف؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(الرعد: ١١).

مرافق الإنفاق التي ينبغي التنافس في إنشائها:

إن الأمة الإسلامية أوتيت في أوطانها من نعم الله وخزائن فضله ومنابع الثراء ما لم يؤت أحد من العالمين، وهي إذا أحسنت القيام على هذه النعم في منابعها وأحسنت استغلالها بالعلم والمعرفة، والخبرة المدبرة، والسياسة الحكيمة والاستقلال في التفكير، وعدم التبعية الموجهة، كان في يدها زمام القيادة التعميرية الموجهة، إنشاء وتأسيسًا، وانتاجًا وتثميرًا، ولنذكر بعض النماذج من مرافق الخير التي ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون.

فالمدارس والمعاهد والجامعات العلمية هي أزكى مواطن التنافس في ميادين الإصلاح والتعمير.

ومدن الإسكان لطلاب العلم ورواد المعرفة، وافدين وغير وافدين، وإعداد بيوت للأساتذة والمعلمين من أهل الدرس والبحث في جوانب هذه المدن الإسكانية، بنظام يحفظ هيبة الاحترام الأبوي للأساتذة وأسرهم، مع توافر وسائل التصون والاحتشام التي يأمر بها الدين، وتحرص عليها أشد الحرص آداب الاجتماع -أوسع مجالات العمل للقادرين أفرادًا وجماعات، محكومين وحكومات.

وإنشاء المشافي والوحدات الصحية في حنايا الوطن المسلم،

فـي كل بلد وقرية وحي ومحلة وضاحية ومدينة لنشـر الوقاية من الأمـراض، وعـلاج ما يقع منهـا، وحماية الأمة من انتشـار الأوبئة -هي أفسح ميادين الخير والبر والعمل الصالح.

وإقامـة المكتبـات العامة في مدن الإسـلام وعواصـم أوطانه، وقصبـات حواضره، وبواديه وقراه، وكل مكان يكون مأهولًا بمن يتأهـل للاطلاع والقـراءة، على نظام يحبب للناس شـيبًا وشـبابًا القراءة والعلم والمعرفة؛ وتغذية هذه المكتبات بالكتب القديمة والحديثة، في كل فن من فنون العلم والمعرفة، حتى يسـتطيع كل مؤهـل للقـراءة أن يجد طلبته ويحقـق رغبته -أعظم مـا ينفق في سبيله المال لخير الأمة وإعلاء التفكير في الأمم والشعوب.

وهـذه المكتبات العامة في حقيقتهـا دور ثقافة، ومدارس حرة للشـعب، ومعاهد تعليم للعامة، وجامعات شعبية لتعليم الخاصة الذين قامت حواجز الحياة دون إتمامهم مراحل التعليم الرسمي.

وكـم مـن هـؤلاء المعوّقين بمـا ليس فـي طاقتهـم إزاحته من طريقهم، من هو على استعداد فكري وفراغ زمني لينهض بتحصيل ما فاته لو أنه وجد فرصة تسـعفه ليعوض ما تسـرب من زمنه لأمور خارجة عن إرادته؟.

وكم من هؤلاء المعوّقين من شمَّر ونهض، واتخذ من المكتبات

العامة جامعته العلمية، فجد واجتهد حتى فاق به الذين لم يعوقوا، بل كان رجل أمة، قدم لأمته من الأفكار والعمل ما أسهم في تقدمها العلمي والحضاري؟

وإنشاء دور الضيافة لإيواء الفقراء والمعوزين وذوي الحاجة من أبناء السبيل، في نظام يكفل القضاء على مذلّة السؤال، ويرفع من شأن السّؤال، ويزيل من جبين الأمة وصمة التعطل والمتعطلين، ويوجه القادرين على العمل إلى المشاركة في الحركة الجادة والعمل المفيد، ويعين العاجز على تحمل مشاق الحياة - من أفضل أعمال البر.

وإقامة دور كفالة اليتامى الذين فقدوا حنان الأبوة بفقدهم من يقوم على إعالتهم وإحسان تربيتهم، ويوجههم توجيهًا صالحًا يعدّهم ليكونوا لبنات قوية في مجتمعهم المسلم - أجلُّ ما تُنفَق في سبيله رغائب الخير والبر.

وبناء الملاجئ لإيواء المشردين من أبناء الأمة، وتعليمهم ما يعتمدون عليه في حياتهم من عمل بدني أو فكري، وكشف ما عسى أن يكون قد وُهبوه من خصائص مخبوءة في طبائعهم لم تتح لها فرصة الظهور، ومن استعداد جُبلوا عليه، يدفع بهم إذا وُجِّه إلى آفاق الحياة الصالحة الخيرة - هدف من أهداف الحياة

الاجتماعية في تربية الأمم والشعوب، ومقصد من مقاصد البر في تربية الأفراد والجماعات.

كل ذلـك وغيره مما تتطلبـه الحياة الصالحة الجـادة، ويجمل فيه البذل، ويحمد في سبيله الإنفاق من أهل الفضل والسَّعة، الذين خصهم الله بنعمـة الاقتـدار المادي والثراء المالي، مما يعـود على الأمة بالنفع الجزيل مجالات للتنافس اقتضاءً لثواب الله وفضله في الدنيا والآخرة.

أمـا المسـاجد فهي مـع كونها مـن أعظم ما تَشْـرُف بـه حياة المسلم؛ لأنها عنوان إخلاص الإيمان، ورسوخ اليقين، ومتعبدات الإسـلام، وموائـل الذكـر، ومجاميـع العلـم، ومنـازل المعرفة، ومجتمعات الصالحين، ومحافل المتقين، ينطلق من رحابها النداء الأشـرف، والدعاء الأكرم، يدعو المؤمنين إلى السمو بأرواحهم، وتطهير أفئدتهـم، وتصفية قلوبهم، وتزكيـة عقولهم بتكبير الله تعالى وحده وإخلاص الدين لوجهه، وإسـلام الوجه لجلال قدسه، استشـعارًا لنعمة الحرية مـن التعبد لغيره عز شـأنه، تلك الحرية التي أوتيها الإنسان في شرف إنسانيته - فقد رسم لها الإسلام في أحكام شـرعه نهجًا في إنشـائها يحقق أهدافها، ولا يصدّ عمّارها عـن المقصود الأعظم من إعظامها وإعلاء شـأنها، بعد أن فتح الله على المسـلمين أبواب الاقتـدار المالي والثراء المادي في إنشـاء مـا تحتاج إليه الأمة من منشـآت كان يقوم بمهمتها المسـجد في

مطلع حياة الإسلام للضرورة المقتضية لذلك، وقد انتهى أمدها، ولم تعد مما يطلب من المسجد القيام به، بل لا يصلح أن نحمّل المسجد مهمة القيام بها.

وبهذا أصبح المسجد مختصًا بأمرين، يُنشأ ليقوم بهما، وتؤدَّى بهما مهمته العظمى في الإسلام، وهما مرتبطان به أوثق الارتباط، وبين أحدهما والآخر من الوشائج القوية ما بين المقدمات والنتائج، أو ما بين الوسيلة والهدف، أو ما بين الأسباب والمسببات.

ذانك هما: أولًا - التعبد لله تعالى بإقامة الصلوات، والذكر، والتسبيح وسائر ما يحقق تقديس التوحيد وإخلاص العبودية لله عز شأنه، وقد نبّه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الجن: ١٨)

وثانيًا - البحث العلمي ودراسته، وتعليم رواد المسجد من طلاب العلم والمقيمين في أروقته ومساكنه علوم الإسلام الشرعية ووسائلها من فنون اللغة والأدب، وعلوم الكون.

وهذان الهدفان هما اللذان ينبغي أن يضعهما نصب عينيه من يريد أن يبني لله تعالى مسجدًا، يطلب به رضاءه وثوابه، ونفع أمته ومجتمعه المسلم.

وعلى الحكومات المسلمة أن تكون قدوة للأفراد والجماعات فـي ذلك، بل عليها أن تلزم الأفـراد والجماعات بالتزام ذلك، فلا تترك أحدًا يخرج بالمسـجد في بنائه عن الصورة التي تحقق هذين الغرضين بوسـائلهما المعينة على تحقيقهما، وذلك بالتزام نهج البسـاطة الماديـة الـذي يحقق الغايـة التعبدية والدراسـة العلمية المقصـودة من إنشـاء المسـاجد وبنائها في المواطـن التي تخلو منها أو التي تضيق مسـاجدها بروادها من المتعبدين والدارسين، وفي البسـاطة المادية، إلى جانب توفير المال لتقام به مؤسسـات أخـرى تحتـاج إليها الأمـة، حماية لـرواد المسـاجد ونزلائها من شـواغل القلب، وفتنة العقول وإفسـاد روح العبـادة والإقبال على الدراسة العلمية بما استحدث فيها من زخرف ورسومات وتزيين، وتعـالٍ فـي نضد الحجـارة المنحوتة المزركشـة، ونصـب العمد الرخاميـة الضخمـة ذات التكاليـف الباهظة المجلوبـة من خارج بلاد الإِسـلام، ونقوش الفسيفساء، وكتابة الآيات أو الأشعار بماء الذهـب والفضة؛ مضاهاة للكنائس والبيـع والصوامع مما يخرج بالمسـاجد عن أهدافها والمقصود منها، بهذا الإِسـراف السفيه، والتبذير الأحمق الذي يخالطه الرياء والتباهي والتفاخر.

إن المسـاجد لله تعالى، أمر الإِسـلام بإقامتها ورغَّب في بنائها ليعبـد فيهـا الله وحده، ويذكر فيها اسـمه بألسـنة طاهرة وقلوب

مخلصة، وأرواح مشرقة بنور العبودية لا تشغلها الزخارف والزينات عن الخشوع والضراعة لله بين يديه في أشرف وأفضل مواقف العبودية، رضيها الإسلام مواطن لدراسة علومه ومعارفه، وهذا هو أعظم أهدافها أو هو هدفها الأعظم الذي يجب أن يحرص عليه المسلمون في بناء مساجدهم أينما كانوا في أوطانهم من أرض الله.

ولكن المسلمين منذ أن فتحت عليهم أبواب الدنيا وزخارفها ومتعها، وكثر في أيديهم المال، وعمهم الثراء بما فتحوه من بلاد وما غنموه من مال، وما ثمّروه من طارف وتليد، أفرادًا وحكومات ضلّوا عن سواء السبيل في حياتهم، وامتطوا صهوة الترف والتبذير، وأخذ من يوسم بالخير منهم يتنافس في التعالي ببناء المساجد، وزخرفتها، والمبالغة فيما ينفق عليها مبالغة فاحشة، جعلت من هذه المساجد قلاعًا خربة، لا تجد من يدخلها للتعبد فيها بالصلاة والذكر، أو لدراسة العلم، حتى انصرف عنها عمارها من عباد الله المؤمنين، فخوت على عروشها، تنعي من بناها وأسرف فيما أنفق فيها، من ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾

(الكهف: ١٠٤)

وهاهي ذي الشواهد والأمثلة قائمة، فَمْن ينظر إلى مساجد الفاطميين والمماليك في مصر يعرف صدق ما قلنا، ففي ميدان قلعة محمد علي تجد المساجد متراصة على الجوانب آخذًا بعضها بجدران بعض، في ارتفاعات شاهقة وحجارة ضخمة كحجارة قبور الفراعنة وأهراماتهم وآثار وثنياتهم، لا يكاد يدخلها أحد للصلاة والعبادة، فضلًا عن دراسة العلم، ومن يدخلها فإنما يدخلها مكدودًا متعبًا لينام فيها ساعة من نهار. وفي حي الجمالية وباب الفتوح حيث مسجد الحاكم الذي أصبح مأوى لكل ما ينفر منه الطبع السليم، وإلى جوانبه مساجد لإخوانه من أمراء الفاطميين والمماليك تنادي على أهلها بالحماقة، وليس في أرض الإسلام بلد يخلو من هذا الطيش الأحمق في التعالي والتفاخر في بناء المساجد، والبعد بها عن نهج الإسلام في بساطة الفطرة وتحقيق هدف التعبد ودراسة العلوم والمعارف.

ومن أعجب العجب أن هذه المساجد استولت عليها مصلحة هي أبعد ما تكون عن الدين ومقاصده، تلك هي مصلحة الآثار التي جعلت من هذه المساجد آثارًا للفرجة والعبث، وتَنزُّه الوافدين من الفرنجة، بحجة معرفة الفن الإسلامي في أبنية مساجده، وهذه المصلحة إنما تُعنى أشد العناية بحفظ الصبغة الأثرية لهذه المساجد، ولا يعنيها قط أن تحقق غرضًا من أغراض إنشائها، وإن ربك لبالمرصاد.

ولا يفهمَّن أحد من كلامنا أننا نقصد أن نجعل من بناء المساجد صـورة نرجـع بها إلى نـوع من السـذاجة والبسـاطة المادية تحط مـن قدرهـا، وتنزل بها عـن مكانتها التي أذن الله بهـا من الإعظام والتشـريف، ولكننـا نقصـد إلـى الإهابة بالمسـلمين في شـتى أوطانهم أن يعودوا إلى فطرة الإسـلام في بناء المساجد، فيجعلوا منهـا بيوتًا للعبادة، ودراسـة العلوم والمعـارف لا صياصيّ وقلاعًا أشـبه بحصون المحاربيـن القدامى من اليهـود وغيرهم، ونقصد أن ندعوهم حكومات وأفـرادًا وجماعات إلى الاقتصاد في نفقات التغالـي والتعالي والمبالغة المبذرة في بناء المسـاجد، لتبقى لها قدسيتها الروحية التي لا تضاهى، ولتبقى لها في النفوس مكانتها التعبدية الإسلامية التي تحفظ لها وشائجها التاريخية بأول وأعظم مسجد أسسه وبناه سيد المرسلين في دار هجرته ومستقره، ولقد بكـى أعلياء الأئمة مـن علماء الأمة يوم غُيِّر المسـجد النبوي عن وضعه الأشـرف إلى هذا التعالي والتزخرف الذي شـغل العباد عن روح العبادة من الخشوع والضراعة لله الواحد القهار.

ولا يعوزنـا ضرب المثل وذكر الشـاهد على البسـاطة المادية النِّسـبية التـي تحقـق الهدف مـن بنـاء المسـاجد، دون أن تمس

قدرها من التعظيم والتشريف والتكريم، ولنا في مسجد عمرو بن العاص فاتح مصر المثل الأعلى وهو أعظم مساجد الإِسلام -عدا الحرمين الشريفين- في تحقيق هدف المسجد الإِسلامي، وهو أول مسجد بني في مصر، وقد مرّت عليه قرون وهو في بساطته المادية النِّسْبية.

وهاهو ذا يربض في فسطاط مصر ممثلًا لما ينبغي أن تكون عليه أبنية المساجد في الإِسلام، وهي في أرفع صورها التعبدية والدراسية، فهذا المسجد المبارك منذ أنشئ كان وما يزال متعبد المؤمنين الصادقين، ومدرسة الدارسين من أعلام الأئمة وعلماء الأمة من المحدِّثين والمفسرين والفقهاء والمتكلمين، واللغويين، والأدباء والمؤرخين، ولو لم يكن له من المفاخر إلا حلقة الإِمام الشافعي، وحلقات تلاميذ مالك بن أنس، من بني عبد الحكم وأضرابهم لكفاه في سجل الفخر والتكريم، وهو على كل حال نهجٌ في بناء مساجد الإِسلام في الحواضر والعواصم الباقية على الدهر، تشهد بأن بساطة البناء النسبية لا تغمط عظمة الهدف، ولا تغض من مقاصد الإِسلام في مساجده الجامعة.

ولن يبعد الأزهر العامر عن التمثيل الجامع الشامل لنهج البناء المسجدي، الذي جمع منذ أنشئ بين التعبد ودراسة العلم

والبحث عن المعرفة، ولم تغيره الأطوار التي مرّت عليه عن بساطته النسبية باعتباره مسجد حاضرة الإسلام وعاصمة العلم والمعرفة وقيادة الفكر الإسلامي العربي.

وهاهو ذا رابض بأروقته وزواياه، وخزائن كتبه العلمية، التي شملت كل فن في علوم الشريعة عقيدة وتعبدًا، ونظامًا في المعاملات بين الأفراد والجماعات، ومساكن طلابه الوافدين إليه من كل صَوْب وحدب، وليس في أوطان الإسلام وطن إلّا وله في الأزهر العامر رُواق ومكتبة أو مكتبات على اختلاف فرق الإسلام ومذاهبه الفقهية والعقدية، وليس هناك عالم يفد على الأزهر إلّا وله فيه (دولاب) أو خزانة يحفظ فيها متاعه وكتبه، وسائر ما يحتاج إليه من مطالب الحياة، ولطلابه في أروقتهم و(حاراتهم) خزائن كخزائن معلميهم من المدرسين الأساتذة، يحفظون فيها متاعهم وكتبهم ووسائل تهيئة أطعمتهم، وهو بهذا الوضع المدرسي المعهدي الجامعي يملي على الدنيا علوم الإسلام ومعارفه، وفنون العرب اللغوية والأدبية، وأفكار المفكرين وحصائل عقول الباحثين واجتهاد المجتهدين.

لم تمنعه بساطة بنائه النسبية الخالية عن التعقيد والتغالي والتعالي في جملتها التي جمعت له بين المسجدية الجامعة في

مظهرها التعبدي، وبين الجامعية الدراسية والمعهدية الباحثة، وبين إسكان طلابه والراغبين من علمائه المتبتلين في محاريب البحث العلمي، المنقطعين للمعرفة - من أن يكون منبره في سموه حسًا ومعنى أقرب منابر مساجد الإسلام إلى السماء، وأن مسجديته أجل مسجدية في الإسلام، وجامعيته الدراسية أخطر وأفخم جامعيات الإسلام ومدارسه ومعاهده.

وقد كان وضعه هذا نموذجًا يحتذى في المسجدية الدراسية، فأسست على غراره في صور مصغرة من بنائه ونهجه مدارس مسجدية للمذاهب الفقهية المعروفة في أوطان الإسلام، ومدارس لفن الحديث النبوي، وعلوم السنة، استكملت أهدافها المسجدية المدرسية، فخصصت فيها أمكنة للصلاة والعبادة، وأمكنة للدراسة والبحث، وأمكنة أخرى لسكنى طلبتها وما تتطلبه حياتهم في إقامتهم الدائمة من خزائن لحفظ أمتعتهم وكتبهم ووسائل معيشتهم، وفيها مكتبات عامة للطلاب والأساتذة والمدرسين، تزخر بالمراجع النادرة المخطوطة والمطبوعة التي يقوم على حراستها من العبث وصونها من الضياع حفظةٌ أمناء، ولتمكين الباحثين من مراجعة ما يطلبون من قضايا العلم ومسائل البحث والدراسة.

وهـذه المدارس المسـجدية منثورة حول الأزهـر العامر -وهو بينها كالأب الرشـيد تتمثل فيه القدوة الصالحة والأسوة القويمة الراشـدة- وكلهـا تنادي بـأن بسـاطة المظهر القائمـة عليها في بنائهـا ونظامهـا لا تغض من عظمـة المخبر المطلوبـة منها، وإن عدم المبالغة في الإسـراف البنائي لا يعـوق الوصول إلى الهدف، لا سـيما إذا كان هـذا الهـدف تعبديًا وبحثًا دراسـيًا لقضايا العلم والمعرفة، وإنهاض العقل ليقوم بمسئوليته الفكرية.

وقد انتشـر هـذا النوع مـن المسـاجد المدرسـية، والمدارس المسـجدية في صعيد مصر حيث الأسـر العريقة في نسـب العلم والمعرفة، كبيت القشيريين الذي أنجب ابن دقيق العيد وأضرابه من أعلام العلماء في مدارس قوص وغيرها.

فالبسـاطة البنائية التي ندعو إليها في بناء المساجد المدرسية -وكل مسـاجد الإسـلام يجب أن تكون مدرسـية في عملها- أمر نسـبي يتمشّى مع سـمة العصر وصفاء الفطرة ويحقق الهدف من المسـجدية المدرسـية، بروح حريصـة على الوسـطيـة التي هي عنوان الأمة الإسـلامية، يقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣) والوسـطية في بناء المساجد المدرسية هـي التي مـدح الله بها عبـاده المتقين فـي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ

إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ (الفرقان : ٦٧) مع عدم التفرقة بين الإعداد للعبادة والإعداد للبحث والدراسة ، لأن العبادة والعلم توأمان في ميلاد الفكر الإسلامي ، وهما صنوان لا يفترقان في حياة الإسلام .

ما يجب أن يتوافر للمسجد المدرسي ليحقق أهدافه ومقاصده:

والذي يجب أن نخصه بالتنبيه إليه في هذا الاستطراد الذي ساقتنا إليه ضرورة الحديث عن بناء المساجد ومناهج تأسيسها وإقامتها في أوطان الإسلام وبلاده تأسيًا بأعظم مسجد في الإسلام بناه رسول الله ﷺ ، وأبى أن يغير بساطة بنائه إذ عرض عليه الأنصار المال لهذا التغيير ، فقال : «ما بي رغبة عن أخي موسى ، عريش كعريش موسى» . (مسند الشاميين للطبراني)

إن أول دعائم الإصلاح في تحقيق مهمة المسجد في الإسلام وهي العبادة المتلقّاة عن الشارع ، والدراسة العلمية التي تجعل من العبادة صورة منيرة قائمة على الهدى والرشاد -بعد وجود قائم على خدمة المسجد ، حفيظ على طهارته ، أمين على أمتعته- تخصيص عالم تقي فقيه الدين ، فقيه النفس ، يرقب الله في عمله ، يؤم المؤمنين في صلواتهم ويجمِّع بهم ، ويعلمهم أحكام الشريعة من مصدريها الكتاب والسنة ، وفقه الأئمة المتقدمين الذين استنبطوا

هـذه الأحكام قبل حـدوث التفريعـات الفرضية، التـي قد تنتهي الحياة ولا تقع فيها، ومع ذلك يحاول أصحابها أن يستخرجوا لها أحكامًا في تعسـف وعصبية مذهبية أذهبتا نضارة الفقه الإسلامي الأصيل الـذي نبتت بذوره في رياض الاجتهاد الصالح المسـتقيم على أيدي فقهاء الأئمة من سـلف الأمـة، وأطالت الكتب الفقهية وضخَّمت حجمها، وعقَّدت أسـلوبها، ونفَّرت النفوس من النظر فيها والرجوع إليها.

وتخصيصُ عالم بأوصافه الفاضلة لكل مسـجد يقتضي دراسة تخصصيـة في الفقـه الإسـلامي وأصولـه، وما يتصـل بذلك من علوم القرآن والسـنة، وبيان مقاصدهما حتى يكون إمام المسجد المدرسـي أو إمام المدرسة المسـجدية مستكملًا لشرائط الإمامة فـي إحاطتـه بأحكام العبـادة والبحـث العلمي، غيـر واقف عند اجتهـاد أحد أئمـة الاجتهاد، وغيـر واقف عند مجـرد الروايات الحديثيـة من كتب الحديث، بـل يجب أن يكون عليمًا بصحة ما يُروى في الكتب ولو كان منسوبًا لأعلاها وأصحها سندًا، وليكون مستكملًا لشرائط البحث العلمي، وهذا يتطلب دراسة تَخصُّصيَّة في مؤسسة تُنشأ لتخريج علماء وأئمة المساجد، ولا يتحقق ذلك إلا إذا فُـرِّغ قلـب هذا الإمـام العالم من مشـاغل العيش الكريم له ولأسـرته، وضمـان تعليـم أولاده علـى نفقة الدولـة، التي يجب

أن تتكفل بجميع ما تستلزمه حياتهم من رعاية وعلاج وتوفير الكتب وأدوات الدراسة في جميع مراحل التعليم، وإعدادهم للمواطنة الصالحة المنجبة النافعة.

وحينئذ فلا بد لهذا الإمام من مسكن يُؤويه مع أسرته، مستكملًا منافع السكنى الكريمة المريحة، على أن يكون هذا المسكن متصلًا بالمسجد اتصالًا كريمًا لا يكشف عورة ولا يخدش حياء.

ومن البداهة أن يكون لهذا الإمام راتبٌ ماليٌّ مجزٍ في حياته الخاصة وراء ما تحققه له الدولة، يُغني نفسه عن التطلع إلى الاشتغال بأمر من أمور الكسب؛ ليكون وقته كله ملكًا للأمة في العبادة والتعليم والبحث.

ويجب أن تشتمل وثيقة عمله إمامًا ومعلمًا بأي مسجد من مساجد المسلمين المدرسية على نص يمنعه من الاشتغال بأي عمل غير عمله في المسجد إمامًا ومعلمًا.

وقد لا يُغني ذلك في بعض البيئات والمدن الواسعة التي يكثر فيها رواد المساجد المدرسية عن تناوب عدد من العلماء، يقل ويكثر بحسب حاجة المجتمع الذي يعيش في هذه البيئة إلى فنون العلم وألوان المعرفة.

ولا بد لكل مسجد مدرسي من وجود مكتبة عامة، تتوافر فيها

مراجـع البحث والدراسـة وتتوافر لها وسـائل القـراءة المريحة، والدراسـة المتثبتة والبحث المتعمـق، ويكون لهذه المكتبة أمينٌ حفيظٌ، يقظٌ، مثقفٌ، خبيرٌ بما فيها من الكتب والمراجع لإسعاف طـلاب البحث ورواد الدراسـة بما يطلبون من هـذه المراجع التي يجب أن تكون المراجعة فيها في قاعة خاصة بالقراءة والمطالعة، لا تخرج عن حيزها حفاظًا عليها من العبث والضياع.

وقد يتطلب الأمر فـي بعض الأحوال أن يكون في هذه المكتبة المسـجدية آلة كاتبة، وكاتب خبيـر بالعمل عليها لنقل ما يحتاج إليـه الباحث مـن نص في مرجع مـن هذه المراجـع التي يجب أن يُحظر حظرًا باتًا إخراج كتبها إلى خارج المكتبة(٢٢).

فالمسـجد الإسـلامي اليوم يجب أن يقوم على دعائم البساطة النسـبية في البناء، ونعني بالبساطة النسبية أن يكون تفاوت بناء المسـاجد حسـب بيئاتها ومجتمعاتها، فمسجد المدينة الكبيرة بمـا فيها مـن مظاهر العمران وكثافة السـكان لا يكـون في بنائه كمسجد القرية المحدودة في مظاهرها الحضارية وعدد سكانها، وقـد ضربنـا المثل بمسـجد عمرو بـن العاص بالنسـبة للعاصمة

(٢٢) بطبيعـة الحـال يجـب أن يحل الحاسـب الآلى محـل (الآلـة الكاتبـة) التى ذكرهـا الشيخ عرجون. (المجلة)

المصرية، وذكرنا مساجد صعيد مصر المدرسية بالنسبة للمدن المحدودة في مظاهر حضارتها وعدد سكانها.

وإذا كان الهدف الأول لإنشاء المسجد هو التعبد، فدراسة العلم، وقيام حلقات للبحث والتفقه في دين الله هو الهدف الثاني لإقامة المسجد، بل إن الدراسة العلمية والتعبد بالذكر والصلاة يجب أن يمتزجا امتزاجًا يوحد بينهما في كونهما هدفًا واحدًا لإنشاء المسجد المسلم الذي يجب أن يكون متوافر المرافق الضرورية ليريح رواده الذين يتخولونه بالوفود إليه آنًا بعد آنٍ، كما يجب أن يكون قيّمُه من أعلام العلماء المنقطعين للدراسة والبحث والإفادة، وأن تكون مكتبته عامرة بالكتب من كل الفنون العلمية شرعية وأدبية، مما أوضحناه في كلامنا السابق.

المسجد متعبَّد ومدرسة ومعهد:

هذا هو المنهج الذي يجب أن يقوم عليه تأسيس المساجد المسلمة المدرسية وبناؤها؛ ليكون دار ثقافة وعلم للوافدين عليه والمقيمين فيه للدراسة والبحث، وهذا المنهج هو الذي يحقق تربية الأمة وحمايتها من خداع المذاهب المخربة للعقيدة والخلق والسلوك.

ولو أن المسلمين التزموا بالبساطة النسبية في بناء

مساجدهم المدرسية، وتركوا تنافس الرياء في زخرفتها والتغالي في تزيينها والتعالي في بنائها لتوافر لديهم من المال ما يحقق كل ما يطلب في المسجد، وكل ما يطلب منه في المشاركة في تربية الأمة تربية واعية يسودها الإيمان الحقيقي والعلم المستنير والمعرفة المضيئة.

وعلى الحكومات المسلمة أن تكون قدوة صالحة لشعوبها أفرادًا وجماعاتٍ فيما تنشئه من المساجد لتكون مدارس للشعب يتلقى فيها دروس التربية ويتعود فيها على السلوك المستقيم، وعلى الحكومات المسلمة أن تفرض سلطانها الشرعي في منع الإسراف والتبذير في إنشاء مساجد الأفراد والجماعات، وأن تحوِّل ما يزيد على ضرورة البناء إلى مرافق المسجد وما يتطلبه للقيام بمهمته.

الدعامة الثانية
التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم
هي المؤاخاة بين عناصر هذا المجتمع
على الحب في الله

كان البدء في توجيه حياة المجتمع المسلم ببناء المسجد الأعظم في دار الهجرة وعاصمة الإسلام ومنطلق الدعوة إلى الله تعالى – وشيجةً لربط سير هذا المجتمع، وهو يحمل لواء الدعوة إلى توحيد الله بالملأ الأعلى، ليكون هذا المجتمع المسلم مفتوح القلب على أنوار السماء، وهي تتنزل عليه آيات بينات من الهدى والرحمة، والعدالة والسماحة، والإخاء والمحبة، متساميًا بعقيدته وتعبداته، وأخلاقه وسلوكه عن الإخلاد إلى الأرض كما يُخلِد عبيد الوثنية المادية إليها، يلهثون في أقطارها وراء سراب ترابيّ إذا جاءوه لم يجدوه شيئًا.

فالمسجد الذي يحرص المجتمع المسلم على مقوِّماته الروحية حفاظًا على قدسية مسجديته – آيةٌ من آيات الله تعالى، وهو منارة ليهتدي بها السائرون في مفاوز الحياة، المحفوفة بأخطار التعاريج والالتواءات التي يتيه فيها الذين تتخطَّفهم شياطين الوثنيات المادية، وذئاب الإلحاد، فتُلقي بهم في مهاوي الضلال والدمار،

إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وتخلب لبك مظاهرهم، ولكنهم في مخبرهم يحيون في قلق بئيس، ويعيشون في اضطراب مخيف، ويصرعون هلكى في فجاج الفتن والطمع الشره الذي يأكل فلا يشبع، ويجمع فلا يقنع.

أما المؤمن الذي أنس بإيمانه إلى قدسية المسجد، واطمأن قلبه إلى رَوْحه ورَيْحانه وهديه ومعالم آياته، يعيش فيه ساعة يدخل في رحابه لينفض عن نفسه أثقال الحياة ومتاعب الكد والسعي في مناكب الأرض تطلبًا لرزق حلال إن كثر في يديه قال به هكذا وهكذا، ينفقه في مصالح مجتمعه وأمته، يواسي إخوانه، ويحسن إلى جيرانه، ويريش المحتاج الذي مسّه ضرُّ الفاقة، ويبني ويؤسس مرافق للخير والبر، لا يَغُلُّ يده عن إحسان أو إصلاح، ولا يبسطها كل البسط في سفَه وتبذير.

وإن قل رزقه في يديه صبر صبرًا جميلًا، يحفُّه الرضا عن الله، وعن الحياة، لا يسخط ولا يضجر ولا ييأس، ولكنه يستقبل غده بأمل فسيح، ورجاء في رحمة الله التي تشدّه إلى العمل، فيعمل ويتحرك، وهو قرير العين راضي النفس، لا يحسد ولا يحقد، ولا يتمنى على الله الأماني، وهو مرهق بوطأة الكسل البليد؛ لأن

إيمانه ومكانة مسجده في نفسه، وعرفانه حق الله عليه، وحق نفسه ومجتمعه الذي يذكره به مسجده تتداركه بألطاف الأمل الفسيح، وكلما رانت عليه هاجسات الخواطر السوداء هبت عليه من نفحات مسجده نسمات الإيمان واليقين تذكره بفرج الله ورحمته، ويهتف به هاتف الذكرى، بقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (الشورى: ٢٨)، ويوقظه من غفلته مناديًا: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ (الروم: ٥٠)

فالمسجد في الإسلام قوة روحانية تبعث في النفس المؤمنة أشعة الرضا، ومغالبة الملمَّات، التي تنقشع بأضوائها حنادس اليأس[٢٣]، وتفتح أمام المؤمن أبواب الحياة، يدخلها بإيمانه من أي باب يهديه إلى مفاتيح غيبه، معرفتُه بمنازل غيث الرجاء في رحمة الله وفضله وإحسانه.

والمسجد في الإسلام محفل المؤمنين، ومجمع المتقين، والتقوى وقاية من الانزلاق في منحدرات القنوط ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ (الحجر: ٥٦) والمسجد في الإسلام دار كل مؤمن، ومأوى كل متعبِّد، يتساوى فيه جميع

(٢٣) الحندس: الظلام الحالك. (المجلة)

المسلمين من كل جنس ولون، لا يتفاوتون فيه بأمر من أمور الدنيا ومظاهرها، فلا يُقيم فقرٌ فقيرًا من مكانه الذي أدركه قبل غيره، ولا يُجْلس ثراءٌ ثريًا في مكان جلس فيه غيره من عامة المسلمين أو خاصتهم، فالمسلمون جميعًا في المسجد سواسية على اختلاف أجناسهم وألسنتهم وأوطانهم وألوانهم، ولا يتميز في المسجد حاكم عن رعية محكوم، ولا يختص فيه أحد بشيء إلا ما خصه به الإسلام في شرائعه وأحكامه.

المساواة بين المؤمنين منبع المؤاخاة:

هذه المساواة الحقيقية التي يملكها كل مسلم بحكم الإسلام في كل مسجد من مساجد الإسلام، وهي روح الأخوة الإيمانية التي يعقدها الإيمان بين كافة المؤمنين، ومن ثَمّ جاء الإخبار عن هذه الأخوة الإيمانية في الكتاب الكريم دستور الإسلام الأعظم باعتبارها أمرًا واقعًا في الوجود الإسلامي أينما كان إشعارًا بأن الإيمان هو صاحب عقدها بين أفراد الجامعة الإيمانية، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠)

وإذا كانت هذه المساواة هي منبع الأخوة الإيمانية، وكان

المسـجد المسـلم هو منبع تلك المسـاواة - كان من الطبيعي أن تكون جميع صور المؤاخاة وألوانها وضروبها بين أفراد المؤمنين وجماعاتهم نابعة من المسـجد وتربيته لأفراد الأمة باعتبارها أثرًا من آثاره، وعملًا من أعماله في صياغة وحدة الأمة، وحدة تقوم على دعائـم العقيدة التوحيديـة وتعبداتها ونظام معاملاتها وسـلوكها الاجتماعي، وأخلاقها، وأوضاعُ الحياة في كل شأن من شئون الأمة السياسية والمعاشـية، محكومة بعمل المسجد باعتباره المدرسة التوجيهية في حاضر الأمة ومستقبلها.

المؤاخاة بين أفراد المجتمع نوعان: عامّ وخاص:

النـوع الأول: المؤاخـاة الإيمانية، وهـذا النوع مـن المؤاخاة يعقده الإيمان بين أفراد المتآخين، ذلك الإيمان الذي يملأ القلب والعقـل والروح، ويوقظ الفطرة أصيلة ويصقلها من صدأ الشـرك والوثنيـة، ويطوِّع الجوارح لتكون طوع مـا وقر في القلب من قوة الإيمان، ويسند هذه الأخوَّة الإيمانية ما ثبت في العقل من إدراكات مستنيرة المنبع والمصب قبل أن تحجبها رواسب الجهالة الوثنية، كما يدعمها ما ارتسـم في مرآة الفطرة الإنسانية الأصيلة من صور الخيـر والهدى، كانت مغيبة وراء أسـداف الصـدأ الذي ران على

الفطرة من طول ما عانت من آثار الجاهلية الجاهلة[٢٤]، ثم كشف عنها الإيمان بعد تسليط مصابيح إشراقاته عليها، فانجابت عنها حنادس الشرك الغبيّ، وظلمات الوثنية البليدة، فأشرقت هذه الفطرة أصيلة بنور ربها، وتبلجت في إشراقها زاهرة منيرة[٢٥].

هذه الأخوة الإيمانية لا تحتاج في وجودها إلى مواثيق تعقدها أو عهود تضبطها؛ لأن وجودها مع الإيمان أو بالإيمان لازم لا يتخلف، فهي منه كالنتيجة من المقدمات الصادقة، أو كالمسبَّب من سببه المباشر، أو كالمعلول من علته المؤثرة.

فأواصرها معقودة في نفس كل مؤمن مع كل أخ مؤمن، مع انبثاق نور الإيمان في القلب وظهور آثاره في مدارك العقل وتنوّره في إشراقات الروح، ومن ثَمَّ هي موجودة بين طلائع الإيمان بأكمل صورها في كل أمة مسلمة، لكنها قد تتفاوت قوة في آثارها تبعًا لقوة الإيمان، فكل مؤمن في طلائع الإيمان هو أخو كل مؤمن منهم، يترافقون ويتواسون بهذه الأخوة الإيمانية، وبها يتحملون أثقال الحياة ويتعاطفون بالمودة والتراحم، ويتقاسمون الآمال والآلام، ويتشاركون في السراء والضراء، يؤدي كل أخ عن أخيه، ويتبادلون المحبة في الله ولله، وليس أحدهم أحظى بما في يده من

(٢٤) الأسداف: جمع، مفرده سدف، وهو الظلام الحالك. (المجلة)
(٢٥) البلوج: الإشراق. (المجلة)

أخيه، بل إن هذه الأخوة الإيمانية تسامت في إشراقاتها الواقعية إلى الإيثار الذي أثنى به الله تعالى على من تحلّى بحليته مرتبطًا بوشيجة الإيمان.

فهؤلاء المتآخون بالإيمان إذا فرحوا لغبطة دخلت عليهم أو على أحدهم فرحوا كلهم على سواء، وإذا ابتأسوا لمساءة نالت بعضهم ابتأسوا جميعًا، متعاطفين متراحمين، فهم في أخوتهم الإيمانية كأعضاء الجسد الواحد، إذا تألم منه عضو تألم لألمه كل عضو في أعضاء الجسم.

وهذا النوع من الأخوة الإيمانية هو الذي كان بين المهاجرين بعضهم مع بعض في مكة قبل الهجرة، ولم يثبت بطريق صحيح أن هذا النوع من الأخوة كان له ميثاق ملزم عقده رسول الله ﷺ بين رجل معين من المهاجرين وآخر منهم مسمى لأخوته.

وكان النبي ﷺ بمقتضى شدة حرصه على حوافظ الإيمان بين المؤمنين وبمقتضى ما جبل عليه من محبتهم جميعًا يسره أن يرى مظاهر الأخوة الإيمانية الفطرية مشرقةً قويةً بين أصحابه وخلصائه من طلائع الإيمان، وكان ﷺ يؤكد برعايته هذه المظاهر الأخوية بإظهار رغبته في تقوية أواصرها، وتنمية وشائجها، وتوثيق عواصمها بينهم بالمحبة والترافق والتواسي، وتبادل المودة في ذرائع العيش وتقلبات الحياة.

المؤاخـاة بين النبي ﷺ وعلي -إن صحَّ حديثها- مؤاخاة خاصة:

وما رواه الترمذي من طريق حكيم بن جبير، عن جُمَيع بن عمير التيمي، عن ابن عمر قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فجاء علـيّ تدمع عيناه، فقال: يا رسـول الله، آخيت بين أصحابك، ولم تـؤاخ بيني وبين أحد؟ فقال رسـول الله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخـرة»، قال صاحب تحفة الأحوذي في شـرحه: فيه حكيم بن جبيـر، وهو ضعيف، ورُمي بالتشـيع، ثم قـال: وأخرجه -أي هذا الحديـث- أحمد في المناقب عن عمر بـن عبد الله، عن أبيه، عن جـده أن النبي ﷺ آخى بين الناس وترك عليًا حتى بقي آخرهم، لا يَرى له أخًا، فقال: يا رسـول الله، آخيت بين الناس وتركتني؟ قال النبي ﷺ: «ولِمَ تراني تركتُك؟ تركتك لنفسـي، أنت أخي، وأنا أخـوك، فإن ذكرك أحـد -أي يعيب عليك عدم مؤاخاة النبي ﷺ: بينك وبين أحد من أصحابه- فقل: أنا عبد الله وأخو رسـوله»، أي أخـوّة خاصة، هـي أخوة الكفالـة والتربية والرعايـة الأبوية، التي تفوق في مظاهرها وآثارها الأخوة العامة، فلا أحتاج مع هذه الأخوة لأشـرف وأفضل أخ إلى أخوة أحد من الناس بعدها؛ ولهذا جاء في حديث أحمد قوله: «لا يدّعيها بعدي إلا كذاب».

وهذه الأخوة الخاصة سبقت الأخوة الإيمانية؛ لأنها كانت في أساسها من باب الرعاية الأبوية التي أضفاها النبي ﷺ على ربيبه عليّ رضي الله عنه منذ أن اختاره الله له، فضّمه إلى نفسه الكريمة، واحتضنه في كفالته وتربيته والقيام بشئونه وهو طفل جعله مع أولاده رعاية وكفالة وتربية ومحبة.

لما أسلم عليّ رضي الله عنه طليعة للسابقين الأولين أراد رسول الله ﷺ أن يشيِّد بناء هذه الرعاية الخاصة، فأعلن على سمع الدنيا أن هذه الرعاية التربوية والكفالة الأبوية قد صارت في الإسلام -بعد أن شبَّ عليٌّ رضي الله عنه عن الطوق، ومشى إلى الرجولية بخطى البطولة الإسلامية - أخوة في الإيمان مثل أخوة النبي ﷺ لجميع أصحابه وخلصائه.

بيد أن أخوته ﷺ لعليّ تمتاز على غيرها من أخوة الإيمان العامة التي كانت بين أفراد المهاجرين قبل الهجرة بما كان لعليّ رضي الله عنه من منزلة خاصة عند النبي ﷺ، اقتضتها وشائج الأسرة التي كان عليّ أحد أفرادها، ولهذا خلّفه ﷺ بعده في الهجرة ليرد ودائع الناس التي كانت عند النبي ﷺ إلى أهلها، وأنامه على

فراشــه، وأمره أن يتســجَّى ببرده ليرى أعـداؤه المتربصون به أنه ﷺ نائم في فراشه، وهذه منزلة لم تكن لأحد من المهاجرين.

ويؤكد ذلك قول أبي عمر بن عبد البر في (الاســتيعاب): ولم يتخلف عليّ عن مشــهد شهده رســول الله ﷺ منذ قدم المدينة إلّا تبــوك، فإنــه خلَّفه رســول الله ﷺ على المدينة وعلــى عياله بعده فــي غزوة تبــوك وقال لــه: «أنت منــي بمنزلة هارون من موســى» فهــذا كله يدل على أخوة خاصة أرفــع درجاتٍ من الأخوة الإيمانية العامــة، أغنــت عليًا عن الدخول فــي المؤاخاة العامــة التي كانت بيــن المهاجرين بعضهــم مع بعض، والتــي كان النبي ﷺ ينمِّيها بكل وســيلة حتى ظن بعض الناس أنه ﷺ عقد مؤاخاة خاصة بين كل مهاجــر ومهاجر آخر، كالذي ذهب إليــه أبو عمر بن عبد البر ومــن تابعه فإنه قــال: إن النبي ﷺ آخى بيــن المهاجرين بعضهم مــع بعض وآخى بين المهاجرين والأنصار، وقال في كل واحدة من المؤاخاتيــن لعلــيّ رضي الله عنــه: «أنت أخي فــي الدنيا والآخرة» وآخى بينه وبين نفسه.

ولا ندري ما الحكمة في أن يكرر النبي ﷺ قوله لعليّ رضي الله عنــه: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» مرة في عقد أخوة المهاجرين بعضهم مع بعض، ومرة في عقد الأخوة بين المهاجرين والأنصار،

فجعل من كل مهاجري أخًا لأنصاري، وعليّ رضي الله عنه يعلم منزلته الخاصة الرفيعة عند النبي ﷺ، فلا يحتاج لتأكيد ذلك بتكرار هذا القول من النبي ﷺ.

وقال أبو عمر بن عبد البر: وقد روينا من وجوه عن عليّ رضي الله عنه أنه كان يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، لا يقولها أحد غيري إلا كذاب.

وهذا بظاهره يتعارض مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «ليتني رأيت إخواننا» فقال له أصحابه: ألسنا إخوانك؟ قال ﷺ: «أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون بعدي، يؤمنون بي ولم يروني»(٢٦) فهذا الحديث صريح في إثبات أخوة كل مؤمن لرسول الله ﷺ، وأخوة رسول الله ﷺ لكل مؤمن ممن جاء بعده وآمن به ولم يره، فكيف يكون من يقول: أنا أخو رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ أخي كذابًا؟ إلا إذا أريد بالأخوة الثابتة لعليّ رضي الله عنه أخوة خاصة - هي المستفادة من قول النبي ﷺ لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، فهذه منزلة رفيعة في الأخوة، لا يدّعيها أحد غير عليّ رضي الله عنه إلا كان كاذبًا في ادّعائه.

(٢٦) نص الحديث -كما في صحيح مسلم- هو التالي: «...وددت أنا قد رأينا إخواننا» قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد...». (المجلة)

والمؤاخـاة بين حمزة بن عبـد المطلب وزيد بن حارثة من قبيل المؤاخاة الخاصة:

ويجـري هـذا المجرى فـي المؤاخاة الخاصة ما جـاء في بعض الروايات من المؤاخاة بين سـيد الشـهداء حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وبين الحِب زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، فهـي من باب الرعايـة الخاصة التي كان يُضفيهـا حمزة رضي الله عنـه من مظاهر صفوة الود والمحبة والتواسـي والارتفاق على زيد رضي الله عنه؛ لِمَا كان يرى من شدة حُب رسول الله ﷺ له، وإيثاره بأنـواع المكارم والإكرام، ولما كان عليه زيد من رفيع الشـمائل، وجميل المحامد، وكريم الفضائل، ودماثة الأخلاق، والتفاني في خدمة رسـول الله ﷺ، وإيثـاره البقاء في ظله عبـدًا على أبيه وأمه وإخوته وعشيرته حُرًا، مما عقد بينه وبين حمزة -وهما من أحب الناس وآثرهم عند رسـول الله ﷺ- أواصر أخوة أغزر أثرًا في صفو المودّة من مجرد أخوة الإيمان، فهي أخوّة إفضال وتكرّم، وتكريم متفضِّل، وهي أثر من آثار فتـوّة حمزة وبطولته، وللفتوّة والبطولة مآثـر لا تعرفهـا الحياة إلا لأهل الفتوّة وأبطـال الرجال، وقد وجد هذا الأثر في نفس زيد رضي الله عنه تجاوبًا توثّقت به عُرى المودة والإخلاص فكانت أخوة تجمع معالم الإخاء ومآثره.

وقد بلغت هذه المؤاخاة بين حمزة وزيد رضي الله عنهما مبلغًا

رفيعًا، حتى أوصى حمزة لزيد في غزوة أحد إن نزل به قدر الله، وكان حمزة في هذه الوصية كأنه قد قرأ في لوح الغيب أنه ملاقٍ ربه في أشرف موقف لإعلاء كلمة الله، فرأى أن أحب الناس إليه -بعد رسول الله ﷺ- وأوفاهم بأخوته، وآثرهم عنده هو الحِبُّ الذي نشأ في حضن النبوة، وتربّى في حَجرها، وتأدب بآدابها، الكريم على الله وعلى رسوله ﷺ زيد بن حارثة، فأوصى إليه، مؤثرًا له على قراباته وإخوانه المؤمنين، والوصية تشمل أول ما تشمل الوُلْد إذا كانوا صغارًا، يُحْوِجُهم اليتم إلى مزيد من الرعاية والعطف وإحسان التربية الرحيمة والود المواسي، والظاهر أن مؤاخاة حمزة وزيد الخاصة كانت في المؤاخاة الإيمانية بين المهاجرين بمكة، قال صاحب (عيون الأثر): وذكر سنيد عن داود أن زيد بن حارثة وأسيد بن الحضير أخوان وهو حسن إذ هما أنصاري ومهاجري.

وكان من أعظم ذلك أنه لما قضى رسول الله ﷺ أعمال عمرة القضية وأعدّ للرحيل من مكة، وفاء بوعده لأهلها أن يخرج عنهم بعد ثلاثة أيام، ولم يقبلوا تألفه لهم، إذ كان قد تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية -خالة عبد الله ابن عباس وأشقائه- فدعاهم إلى أن يحضروا طعام وليمته عليها، ويؤاكلوه ويؤاكلهم تألفًا لهم، فأبى عليهم فجور العناد أن يقبلوا هذه الدعوة الكريمة.

وخرج ﷺ ، وخرج معه أصحابه الذين رافقوه في أداء هذه العمرة –وفيهم عليّ بن أبي طالب ومعه زوجه فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين في هودجها وفيهم زيد بن حارثة ، وفيهم جعفر بن أبي طالب– وخلّف رسول الله ﷺ مولاه أبا رافع على ميمونة ليخرج بها إذا هدأ الناس ، فأقام أبو رافع حتى أمسى فخرج بها ومن معها ، فأتاه بها بِسَرِف ، فبنى بها رسول الله ﷺ . ومن غرائب موافقات الأقدار أنها رضي الله عنها ماتت بسرف وفيها دفنت بعد مضي قرابة نصف قرن ، فقد قيل إنها توفيت سنة ست وستين ، وفي تصاريف الأقدار آيات لله تعالى لا يعلم أسرارها وخفاياها إلا هو عز شأنه – تبعته أمامة ابنة حمزة ، وهي تنادي : يا عم ، يا عم ، فتناولها عليّ رضي الله عنه فأخذ بيدها ، وقال لفاطمة : دونك ابنة عمك ، فحملتها فاطمة معها ، حتى إذا دنوا من المدينة ، وقاربت الرحال أن تلقى عصا التِسْيار اختصم علي ، وزيد ، وجعفر رضي الله عنهم ، في أيهم هو أولى بأمامة بنت حمزة يكون وليها وراعيها وكافلها ، وتكون عنده في أهله وولده ، فكلَّم زيد فيها رسول الله ﷺ ، وهو وصي حمزة ووديده في الأخوة الإيمانية الخاصة ، فقال علي رضي الله عنه : أنا أخذتها وأخرجتها من بين أظهر المشركين ، وهي ابنة عمي ، وعندي بنت رسول الله ﷺ وهي أحق بها ، وقال جعفر رضي الله عنه : هي ابنة عمي ، وخالتها تحتي ، يعني زوجه أسماء بنت

عميس، وهي أخت سلمى بنت عميس، زوج حمزة، وأم ابنته أمامة، وقال زيد رضي الله عنه: ابنة أخي، يعني ما كان بينه وبين حمزة من أخوة الود والمحبة التي عززتها وصية حمزة له لما حضر القتال يوم أحد، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، فلم تزل أمامة عند جعفر رضي الله عنهما حتى قُتل في غزوة مؤتة، رضي الله عنه وقد أوصى بها إلى عليّ، فمكثت عنده، حتى بلغت فعرضها على النبي ﷺ ليتزوجها، فقال ﷺ: «إنها ابنة أخي من الرضاع» أي لا تحل لي؛ لأن حمزة رضي الله عنه أخو رسول الله ﷺ من الرضاع، أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، ثم زوّجها رسول الله ﷺ من سلمة ابن أم سلمة أم المؤمنين وقال ﷺ حين زوج أمامة من سلمة: «هل جزيت سلمة؟» وذلك أن سلمة هو الذي زوَّج أُمَّه أم سلمة من رسول الله ﷺ، وكان أكبر من أخيه عمر بن أبي سلمة.

وإنما أرخينا العنان للقلم قليلاً في هذه القصة لما فيها من اللطائف والفوائد النبوية، ولما فيها من ذكر المؤاخاة بين حمزة وزيد رضي الله عنهما منسوبة إلى أن النبي ﷺ قد آخى بينهما حين آخى بين المهاجرين، فهي من دلائل وقوع المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض، وقد ذكرها بهذا التصوير الحاكم في كتاب (الإكليل) وأبو سعيد النيسابوري في كتابه (شرف المصطفى)

غير أن سند الحديث لم يُعرَف بالصحة على وجه رجيح، فهو ليس من قواطع النصوص التي يرد بها على من أنكر وقوع المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض، وفي طليعة هؤلاء المنكرين الإمام ابن تيمية، قال الزرقاني في شرح المواهب: وأنكر ابن تيمية هذه المؤاخاة بين المهاجرين، خصوصًا بين المصطفى وعليّ، وزعم أن ذلك من الأكاذيب، وأنه لم يؤاخ بين مهاجري ومهاجري، قال: لأنها -أي المؤاخاة- شرعت لإرفاق بعضهم بعضًا، ولتتألف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاته لأحد، ولا لمؤاخاة المهاجرين بعضهم لبعض.

قال الزرقاني: وقد ردّه الحافظ -أي رد كلام ابن تيمية- بأنه ردّ للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة؛ لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فآخى بين الأعلى والأدنى، ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر حكمة مؤاخاته لعليٍّ لأنه هو الذي كان يقوم به من الصبا قبل البعثة، واستمر ذلك بعدها، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد؛ لأن زيدًا مولاهم، فقد ثبتت أخوتهما وهما من المهاجرين.

وقد ذكروا في هذه المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض أن النبي ﷺ آخى بين أبي بكر وعمر وبين طلحة والزبير، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، كما رواه الحاكم.

وهذا يــردّ كلام ابن حجر في رده على ابن تيمية، أو على الأقل يوهنه ويضعفه؛ لأن ابن حجر يقول في رده: لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض، بالمال والعشيرة فآخى النبي ﷺ بين الأعلى والأدنى.

والمذكــور على أنه نموذج للأشــخاص الذين آخى بينهم النبي ﷺ أنــه آخى بين أبي بكــر وعمر، وطلحة والزبير، وعثمان وعبد الرحمن بن عوف، فأين الأعلى وأين الأدنى في هؤلاء المذكورين، وكلهم أعلون مالًا وعشيرة؟

وفي قول ابن حجر ردًا لكلام ابن تيمية -بأنه ردّ للنص بالقياس وإغفــال عن حكمــة المؤاخــاة، لأن بعض المهاجريــن كان أقوى مــن بعض بالمال والعشــيرة- ضَعْــفٌ؛ لأنه يقال لــه وهو الحافظ للنصــوص: أين النــص الــذي رُدّ بالقيــاس؟ إن كان معوّله على ما رواه الحاكم وأبو سعيد النيسابوري وابن إسحاق فهو معوّل واهٍ لا يستند إلى رواية صحيحة، ولو كانت هناك رواية صحيحة لذكرها ابــن حجر فــي ردِّه، فلما لم يذكر شــيئًا تلوح عليــه دلائل الصحة المسلَّمة علم أنه لا رواية صحيحة يعتمد عليها في إثبات المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة، وابن حجر شــغوف جــدًا بتكثيــر الروايات فيما يعثر عليه منهــا، والنص الذي يمتنع رده بالقياس والمعقول هو النص القاطع في دلالته على موضوعه.

وأما قول ابن حجر: إن كلام ابن تيمية إغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فيقال في رده: فأين القوة بالمال والعشيرة في مؤاخاة أبي بكر وعمر، وطلحة والزبير، وعثمان وعبد الرحمن وكلهم أقوياء بالمال والعشيرة؟

على أن هذه المؤاخاة التي يقول بها ابن حجر قد تبدلت أشخاصُها في مؤاخاة المدينة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وهي المؤاخاة المجمع على أن النبي ﷺ أمر بها وعقدها بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكل مهاجري أخًا من الأنصار، فكان أبو بكر الصديق أخًا لخارجة بن زيد الأنصاري الخزرجي، وآخى بين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الأنصاري، وآخى بين الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقْش الأنصاري، وآخى بين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر الأنصاري النجاري، وآخى بين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك الأنصاري.

فهل نُسخت المؤاخاة الأولى التي كانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض -عند من يقول بها- بهذه المؤاخاة الثانية التي كانت بين كل مهاجري وأنصاري؟ وهذا ما لم نعلمه قولًا لأحد من العلماء.

أمـا المؤاخاة بين حمزة وزيد -التي قد يتشـبث بها من يقول: بالأعلـى والأدنى والقـوي والضعيف بالمال والعشـيرة- فهي من قبيـل المؤاخاة الخاصة، كما بيّناها من قبـل، وزيد بن حارثة كان مـن أعلـى الأعليـاء، وأقوى الأقويـاء؛ لأنه مولى رسـول الله ﷺ، فهو هاشـمي بالمـوالاة، ويزيد على ذلك أنه حِبّ رسـول الله ﷺ الـذي جعل له الله القيام بأمره كله، فالمؤاخاة بينه وبين حمزة بن عبد المطلب ليسـت من باب الأعلى والأدنى، ولا من باب الأقوى والأضعف؛ لأن علو نسـب حمزة وقومه قـد أخذ منهما زيد رضي الله عنه بنصيب وافر؛ لأنه مولاهم ومولى القوم منهم.

وقد تابع ابن تيمية في إنكاره المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مـع بعض تلميذُه ابـن القيم، فقال في (الهـدي): وقيل: إنه ﷺ آخى بيـن المهاجرين بعضهم مع بعض، واتخذ عليًا أخًا لنفسـه، والمهاجرون كانوا مسـتغنين بأخوة الإِسـلام وأخوة الدار، وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بينهم، ولو آخى ﷺ بين المهاجرين كان أحـق الناس بأخوته أحب الخلق إليه، ورفيقه في الهجرة، وأنيسـه فـي الغار، وأفضل الصحابـة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنـه، وقد قـال ﷺ: «لو كنت متخذًا خليـلًا لاتخذت أبا بكر خليـلًا، ولكـن أخـوة الإِسـلام أفضل»، وفـي لفـظ: «ولكن أخي وصاحبي».

وهــذه الأخــوة فــي الإســلام وإن كانــت عامة، كمــا قال ﷺ: «وددت أن قــد رأينــا إخواننا»، قالوا: ألســنا إخوانك؟ قال: «أنتم أصحابــي، وإخواني قوم يأتون مــن بعدي، يؤمنون بي ولم يروني» فللصدِّيــق من هذه الأخوة أعلى مراتبها كمــا له من الصحبة أعلى مراتبهــا، فالصحابة لهم الأخوة ومزية الصحبــة، ولأتباعه بعدهم الأخوة دون الصحبة». انتهى كلام ابن القيم.

وكذلك جرى في شــوط متابعة ابن تيمية فــي إنكاره المؤاخاة بيــن المهاجرين بعضهم مع بعض تلميذه الثاني الحافظ أبو الفداء ابن كثير، فقال في (البداية والنهاية): أما مؤاخاة النبي ﷺ وعليّ فإن من العلماء من ينكر ذلك، ويمنع صحته، ومســتنده في ذلك أن هــذه المؤاخاة إنما شــرعت لأجــل ارتفاق بعضهــم مع بعض، وليتألــف قلوب بعضهم على بعض، فــلا معنى لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهــم، ولا لمهاجري آخر، كما ذكر من مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة، اللَّهم إلا أن يكون النبي ﷺ لم يجعل مصلحة عليّ إلى غيره، فإنه كان ممن ينفق عليه رســول الله ﷺ من صغره في حياة أبيه أبي طالب، وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة، فآخاه بهذا الاعتبار. انتهى كلام ابن كثير.

وهــذا الذي قالــه ابن كثير في بيان وجــه المؤاخاة -إذا صحت سندًا- بين سيدنا رسول الله ﷺ وعليّ بن أبي طالب، وبين حمزة

وزيد بن حارثة هو من باب الرعاية الخاصة -كما ذكرناه سابقًا- وليس هو من باب المؤاخاة الملزمة التي كانت بين المهاجرين والأنصار بالمدينة بعد الهجرة.

بيد أن ابن القيم قد ناقض نفسه، فأثبت في كتابه (الهدي) نفسه في الكلام على عمرة القضية عند الحديث في أخذ ابنة حمزة من مكة، واختصام عليّ وزيد وجعفر في أيِّهم يكون وليها وكافلها، وتكوَّن عنده ما نفاه في كتابه (الهدي) نفسه عند الحديث عن المؤاخاة، الذي أنكر فيه أشد الإنكار المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض، فقال مشيّدًا لإثبات المؤاخاة بين المهاجرين بمكة: وقول زيد: «ابنة أخي» يريد الإخاء الذي عقده رسول الله ﷺ بينه وبين حمزة لما واخى ﷺ بين المهاجرين، فإنه واخى بين أصحابه مرتين، فواخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة على الحق والمواساة، فآخى بين أبي بكر وعمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وعبد الله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله. وفي المرة الثانية آخى بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك بعد مقدمه المدينة». اهـ.

وهـذا تناقض عجيب مـن ابن القيـم، فهو ينفي أمـرًا من أمور تاريـخ الإِسـلام وأحداثه، ويدعم نفيه وإنكاره بأدلة يسـوقها وهو مقتنع بها ثم هو يثبت هذا الأمر، ويشيّد إثباته بأدلة يذكرها وهو مقتنـع بهـا، ولله في خلقه آيات تـدل على أن الكمـال المطلق له وحده، والإِنسان هو الإِنسان.

وقـد عرض الإِمـام عز الدين بن عبد السـلام -كمـا ذكر ذلك الزرقانـي- لقضيـة المؤاخـاة بمـا يشـعر بأنـه لا مانع مـن وقوع المؤاخـاة بين المهاجرين بعضهـم مع بعض في مكة قبل الهجرة، ومـن وقوعها بين المهاجريـن والأنصار بعد الهجـرة، والمؤاخاة الأولـى هـي المتنازع في وقوعها من النبـي ﷺ بين العلماء، وهي التـي أنكرهـا ابن تيمية وزعـم أنها من الأكاذيب، وأمـا المؤاخاة الثانيـة وهي التي عقدها رسـول الله ﷺ بالمدينة بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار فهي موضع إجماع بين العلماء.

ويؤخـذ مـن كلام العز بن عبد السـلام أن المؤاخاة في حالتيها وإن اقتضاها أصل الإِسـلام إلا أنه لما كان المقصود بها المعاضدة والمناصرة بين كل مسـلم ومسـلم فهي أخوة ناشئة عن الإِسلام، أكدهـا أمـر النبـي ﷺ أمْر نـدب فكانت بهـذا الأمـر الندبي في أعلى مراتب الأخوة المتناصرة الناشـئة بالإِسـلام، فأمر النبي ﷺ بالأخوة في قوله: و«تآخوا، أخوين، أخوين» ليس مُنشِـئًا لشيء لم

يكن موجودًا بين المسلمين، وإنما هو مؤكِّد لأمر أنشأه الإسلام، وهـذا التأكيد تضمَّن أن أخـوة الالتزام التي تضمّنها أمر النبي ﷺ فيه إلـى جانب الالتـزام مواعدة بالثـواب والخير وترتـب الآثار، فتكون الأخوة التي أنشـأها الإسلام وأكدتها المواعدة أعلى مرتبة مـن مراتب الأخوة التي لم تكن معها مواعدة؛ لأنها تضمنت طلبًا بالمواعدة لم يكن موجودًا بأصل الإسلام.

بيـد أن العز بن عبد السـلام رحمه الله لـم يعرِّج على نص نقلي يـدلُّ علـى أن النبـي ﷺ عقد مؤاخـاة بين المسـلمين بمكة قبل الهجرة، وأنه آخى بين نفسه الزكية وبين عليّ رضي الله عنه، وهذه المؤاخاة هي موضع النزاع بين العلماء وهي التي أنكرها ابن تيمية ومن تبعه في هذا الإنكار.

وكلام عز الدين بن عبد السـلام إنما ينصبّ على إمكان توجيه الأمر بالمؤاخاة أو عقد ميثاقها بين المسلمين قبل الهجرة وبعدها، غيـر أن كلامه -رحمه الله- خرج في أسـلوب لا يخلو من غموض وإغراب أشبه بالتفلسف الخطابي، وفيه ما لا يقنع ولا يسلم له.

قال رحمه الله: الأخوة حقيقية ومجازية، فالحقيقية المشابهة، يقـال هذا أخو هذا؛ لأنه شـابهه في خروجـه من البطن الذي خرج منـه، ومن الظهر أيضًا، وآثارها المعاضدة والمناصرة، فتسـتعمل

فـي هذه الآثار من باب التعبير بالسـبب عن المسـبب، ومنه قوله تعـال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجـرات: ١٠) هو خبر معناه الأمـر، أي: لينصـرْ بعضهـم بعضًـا، وقولـه ﷺ: «المؤمـن أخو المؤمن» (صحيح مسلم) خبر أيضًا بمعنى الأمر.

ولما انقسـمت الحقيقة إلى أعلى المراتب كالشقيق، وإلى ما دون ذلـك، كالأخ للأب أو للأم كانـت المجازية كذلك، فالأخوة الناشـئة عن الإسـلام هي المرتبـة الدنيا من المجازيـة، ثم إنه لما كملت بالأخوة التي سنّها رسول الله ﷺ بمؤاخاته بين جماعة من أصحابه، ومعناها أنه ﷺ أقر أمر ندب أن يُعِينَ كل واحد أخاه على المعـروف، ويعاضده وينصره، فصار المسـلمان فـي هذه الأخوة الثانية في أعلى مراتب الأخوة المجازية كالشقيقين في الحقيقية.

فإن قيل: هذه الأخوة مسـتفادة من أصل الإسـلام، فإنه يقتضي المعاونة على كل أمر؟ فجوابه أن الأمر الثاني مؤكِّد لا منشئ لأمر آخر؛ لأنه لا يسـتوي مَنْ وعدته بالمعروف من المسـلمين ومن لم تعده، فإن الموعود قد وجد في حقه سـببان، الإسلام والمواعدة، وهذه الأخوة هي التزام ومواعدة، ولا شـك أن طلب الشارع للوفاء بالخيـر الموعود بـه أعلى رتبة من طلب الخير الـذي لم يعد به».

انتهى كلام العز.

ومـن أغرب وأعجـب ما جاء فـي مؤاخـاة المهاجرين بعضهم لبعض ما ذكره ابن إسـحاق في مغازيه وسيرته -وهي من المراجع لأحـداث السـيرة النبوية، بل هـي من أهم المصـادر للكاتبين في وقائع السـيرة الشـريفة، قديمًا أو حديثًا- وذلك إذ يقول: وآخى رسـول الله ﷺ بيـن أصحابه مـن المهاجرين والأنصـار فقال -أي رسـول الله ﷺ- فيما بلغنا، ونعـوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل: «تآخـوا فـي الله، أخوين، أخوين» ثم أخذ بيد علـيّ بن أبي طالب، فقال: «هذا أخي» فكان رسـول الله ﷺ، سـيد المرسـلين، وإمام المتقين، ورسـول رب العالمين الذي ليس له خطير، ولا نظير من العباد، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه- أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله ﷺ وعمّ رسول الله ﷺ، وزيد بن حارثة مولى رسـول الله ﷺ - أخوين، ولذلك أوصى إليه حمزة يوم أحد حين حضره القتال، إن حدث به حادث الموت وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين، الطيار في الجنة، ومعاذ بن جبل أخو بني سّلِمة أخوين.

قال عبد الملك بن هشام في تهذيبه المغازي الإِسحاقية: وكان جعفر ابن أبي طالب غائبًا يومئذ في الحبشة.

وهذه غمزة من ابن هشـام لابن إسـحاق، فكأنـه يقول له: أين

جعفر وقت هذه المؤاخاة؟ إنه بعيد الدار في غيبة لا يُدرى مداها، ففيم كانت هذه المؤاخاة بين رجلين أحدهما هاشمي مهاجري، غائب غيبة بعيدة مجهولة العودة والآخر أنصاري، وحكمة مشروعية المؤاخاة من الترافق والتعاضد والمؤاساة على الحق والمعروف والموادة في العشرة لا تتحقق بين غائب لا يُعرَف متى يئوب، وبين حاضر يحبس على مؤاخاة ربما لا تتحقق.

وجعفر بن أبي طالب لم يَعُدْ من الحبشة إلا بعد فتح خيبر، في السنة السابعة من الهجرة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بدأت في السنة الأولى من الهجرة وهم يبنون المسجد الأعظم، وقد قدم جعفر على رسول الله ﷺ ولواء النصر بفتح خيبر يخفق على رءوس المسلمين، وكان فرح رسول الله ﷺ بقدوم جعفر عليه عظيمًا، فقد استقبله والتزمه وقبَّل بين عينيه وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسرّ، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟».

ولا يحتاج ما في كلام ابن إسحاق من تنفس شيعي متدسس، تفوح من ألفاظه رائحته - إلى كبير عناء في الكشف عنه، وهو مما أُبِن به، وإن حاول ابن إسحاق إخفاءه بما أضفاه على عباراته من ألفاظ لها دوي الحق وجهارته وقوته، وبما تطوّع به في غير حاجة إليه من إظهار التبرئة لنفسه أن يقول على رسول الله ﷺ ما لم

يقل. وليس فيما ذكره مسندًا إلى رسول الله ﷺ، ولم ينفرد به من قوله ﷺ لأصحابه بعد الهجرة: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» ما يشعر ولو تلميحًا بتهمة تقتضي التبرئة منها، ولعله قصد به التمهيد والتوطئة إلى قوله: فأخذ بيد علي، وقال: «هذا أخي».

وقد وهّن ابن حجر في تقريبه كلام ابن إسحاق، ولم تخدعه تبرئته لنفسه، فقال: وابن إسحاق متَّهم بالتشيّع وهو مدلِّس، ولم يذكر لكلامه سندًا، أي فلا اعتداد به لقوة ضعفه.

وهذا الذي زعمه ابن إسحاق في المؤاخاة مصدّرًا بمؤاخاة رسول الله ﷺ لعليّ رضي الله عنه، وبمؤاخاة حمزة بن عبد المطلب لزيد بن حارثة إنما كان في مكة قبل الهجرة -عند من يقول بمؤاخاة المهاجرين بعضهم لبعض- وهي التي أنكرها ابن تيمية في رده على ابن المطهِّر الرافضي الكذّاب(٢٧)، وقال عنها ابن تيمية: إنها من الأكاذيب.

بيد أن عبارة ابن إسحاق بيّنة في أن هذه المؤاخاة بين رسول الله ﷺ وعليّ رضي الله عنه، وبين حمزة وزيد بن حارثة إنما وقعت بالمدينة بعد الهجرة كما قيدها بذلك ابن حجر في الفتح عند سوقه لكلام ابن إسحاق.

---

(٢٧) ولعل هذا هو الذي دفع ابن تيمية إلى إنكارها؛ إذ كان في رده حريصًا على تفنيد كل ما يستند إليه الرافضة، فأدته المبالغة إلى إنكار ما لا يلزم إنكاره. (المجلة)

ولا وجـه لهـذه المؤاخاة بين مهاجري ومهاجـري بعد الهجرة بالمدينة، ولا تظهر لها حكمة تقتضيها، ولا تنطبق عليها حكمة مشروعية المؤاخاة.

ورسـول الله ﷺ وهو سيّد المرسـلين، وإمام المتَّقين، ورسول رب العالميـن، الذي ليس لـه خطير ولا نظير من العباد أخ لجميع المؤمنين، سواء منهم من تميز بشرف الصحبة مع الإِخاء الإِيماني أم من لم يكن له فضل الصحبة، ولكن كان له الإِخاء الإِيماني الذي يعـم جميع المؤمنين على مـدى الأزمان والأجيال، ممن قال فيهم رسـول الله ﷺ: «وددنا لو رأينا إخواننا» فقال له أصحابه: أولسنا إخوانـك؟ قـال: «أنتـم أصحابي، وإخوانـي الذين يأتـون بعدي، يؤمنون بي ولم يروني».

وابن إسـحاق يعمد في إخفاء تشـيّعه إلى أسلوب عجيب، فهو يهمـل صور المؤاخاة التي صحَّ سـندها صحة لا سـبيل إلى الطعن فيها، ويذكر صورًا مشتبهة بألفاظ لها رنين، وأوصاف لا يردها أحد عن موصوفها، ولكنها تُخفي بين طياتها ما يرمي إليه المتشيِّعون، فنراه يعمد إلى سيد الخلق ﷺ فيذكره في صدر عبارته التي افتتح بها حديث المؤاخاة بنعوت هو ﷺ أهلها وصاحبها وأحق بها، بل

هو ﷺ أهل لما هو أخطر وأعظم منها؛ تمهيدًا وتوطئة لمؤاخاته عليًا، وعلي رضي الله عنه في شرفه وسابقته وسامق فضله أهل لهذه المؤاخاة التي كانت له مع أكرم البشر ﷺ قبل أن يبعث إلى الناس نبيًا ورسولاً، واستمرت في عظمتها محفوفة بحنان الأبوة، وعواطف التربية حتى جاء الإسلام فتسامت بالإيمان والحب والفداء والإخلاص، ولكنها كانت وبقيت أخوة خاصة، فعليّ رضي الله عنه كان منذ طفولته محبوًا من رسول الله ﷺ قبل أخوة الإيمان والمعاضدة والمناصرة؛ لأنه نشأ في حَجْر رسول الله ﷺ مع أولاده في بيته، ينفق عليه ويتعهده بالتربية وغرس أكرم المكارم في نفسه حتى نشأ في الإسلام وحيدًا في فضله وشرفه، لا ضريب له في شمائله.

ثم يعمد ابن إسحاق إلى سيد الشهداء، فتى الفتيان، أسد الله وأسد رسوله، وأنضر أغصان دوحة عبد المطلب بن هاشم وأشجع بني عبد مناف، عم رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب، ويذكر إخاءه لزيد بن حارثة حِبّ رسول الله ﷺ ومولاه وخاصته، وزيد في فضله وشرفه واختصاصه برسول الله ﷺ، وشدة محبته له أهل لإخاء حمزة رضي الله عنهما، ولكن هذه الأخوة بينهما كانت أخوة خاصَّة، تقصد إلى الرعاية وحسن المعاشرة، كما ذكرناه

سـابقًا، وأوضحنا آثارها، ولـم تكن من قبيل الأخـوة التي عقدها رسـول الله ﷺ بيـن أصحابه مـن المهاجرين والأنصـار ليترافقوا بينهم ويتعاضدوا ويتناصروا.

ثم وثب ابن إسحاق إلى ذكر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار دون تمهيـد أو توطئة؛ بعد ذكر المؤاخاة بين سـيد الخلق محمد ﷺ وعلـيّ رضي الله عنه، وبين حمزة بـن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وبين جعفـر بن أبي طالب، وهو في غيبته البعيدة المدى، المجهولـة الأوبـة، ومعاذ بـن جبل الأنصـاري الخزرجـي، فذكر المؤاخـاة بين المهاجرين والأنصـار، وذكر كل مهاجري كان أخًا لأنصاري.

وكأن ابـن إسـحاق أجدب فكره وعقم علمـه، ولم يجد فيهما شـواهد ومثلًا للمؤاخاة بين المهاجريـن بعضهم مع بعض غير ما ذكره من مؤاخاة رسول الله ﷺ عليًا، ومؤاخاة حمزة زيدًا، وقد بيّنا بمـا لا يدع مجالًا للشـك أن رعاية النبـي ﷺ لعليّ رضي الله عنه، وحدبـه عليه كان من قبيل رعاية التربية وحدب الكفالة، وإخلاص المودّة التي غمره بها ﷺ منذ آواه إلى كنفه، وجعله مع أولاده في بيته، ينفق عليه كما ينفق عليهم، وهو في مَيْعة الطفولة(٢٨)، حتى

(٢٨) الميعة: الخفة والنشاط. (المجلة)

مَنّ الله عليه بالإسـلام، وشرفه بالسـبق في مضمار الإيمان برسالة الخلود التي جاء بها محمد ﷺ ومشى في مدارجها حتى بلغ مدرج الرجولة، فكان صنديدها، وبطل الجهاد لإعلاء كلمتها.

وكان رضي الله عنه بحكم ما أضفاه عليه رسول الله ﷺ من حب أخـوي، ورعاية أبوية، وتقدير لسـوابقه ومواقفـه البطولية أخص الناس به فيما ليس لغيره مجال فيه، من أمور تخص رسول الله ﷺ فـي حياته الخاصة وحياة أسـرته، فكانت أخوتـه للنبي ﷺ أخوة خاصـة، نبتت جذورها مع مدارج التربية الأبوية والرعاية الكافلة، والمحبة الوارفة.

وبيّنا أن الأخوة التي كانت بين أسـد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسـول الله ﷺ وحِبّه كانت من قبيـل المودة التي تكون بيـن الصديقين، والرعاية التي تكون بين الودوديـن إذا مزج الصفاء الروحي بيـن روحَيْهما، فكانا في وفاء الرعاية والمعاضدة كأنهما نفس واحدة في جسدين.

وبيّنـا أن المؤاخـاة المزعومـة بيـن جعفـر بن أبـي طالب ذي الجناحيـن، الطيار في الجنة، وهو في غيبته التي طال أمدها ومعاذ بـن جبل الأنصـاري مؤاخاة لا محصَّل لها، فهـي إن كانت فكأنها لم تكن؛ لأن جعفرًا رضي الله عنه عاد من الحبشة مع أصحابه بعد

فتح خيبر سنة سبع من الهجرة، واستشهد سنة ثمان من الهجرة في غزوة مؤتة، فبين عودته واستشهاده بضعة شهور، وعاش معاذ رضي الله عنه بعد جعفر إلى سنة عشر من الهجرة، وتوفي بالطاعون في الشام، وكان يوم توفي في ريعان الشباب وميْعة الفتوّة، إذ لم تتجاوز سنه الرابعة والثلاثين.

ومما يوهّن قول ابن إسحاق في مؤاخاة جعفر ومعاذ رضي الله عنهما أن الواقدي -ولعله أرسخ قدمًا في السير والمغازي من ابن إسحاق- ينفيها نفيًا باتًا، فابن عبد البر يقول في (الاستيعاب): وآخى رسول الله ﷺ بين معاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود، ثم قال ابن عبد البر: قال الواقدي: هذا ما لا اختلاف فيه عندنا، ثم حكى ابن عبد البر قول ابن إسحاق فقال: وقال ابن إسحاق: آخى رسول الله ﷺ بين معاذ بن جبل وبين جعفر بن أبي طالب.

وقال صاحب (العيون): وأنكر الواقدي هذه المؤاخاة لغيبة جعفر بالحبشة، وعند سنيد أن المؤاخاة كانت بين ابن مسعود ومعاذ بن جبل.

وكان ابن إسحاق في قفزته إلى الحديث عن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حريصًا على إثارة ما بدأ به حديث المؤاخاة من رهج التشيع، فذكر أول ما ذكر في هذه المؤاخاة أبا بكر

الصدِّيــق، وخارجــة بــن زيــد، رضــي الله عنهمــا، وأراد أن يعرّف بالصدِّيــق، فقــال: وكان أبو بكــر الصديق رضي الله عنــه ابن أبي قحافة وخارجة بن زيد، أخوين.

وتعريــف الصديــق بعــد ذكره باســمه، وأخــص خصائصه في الإِســلام، والتَّرضي عنه بأنــه (ابن أبي قحافــة) تعريف يدعو إلى التعجــب؛ لأن ابن إســحاق عــرّف أبا بكر بذكــر خصيصته العليا التــي لا يشــاركه فيهــا أحد مــن المؤمنين إلا بضرب مــن الإلحاق والمجــاز، فقال: وكان أبــو بكر الصديق رضــي الله عنه -ابن أبي قحافــة- وخارجة بن زيد أخويــن، فما قيمة قوله في التعريف (ابن أبــي قحافة)؟ وهــو وإن كان زيادة في التشــريف فإِنــه لا فائدة له فــي التعريف، فهو من نافلة القــول؛ لأن الصدِّيقية التي عرّف بها ابــن إســحاق أبا بكر بن أبــي قحافة تطوي تحــت جناحيها جميع خصائــص أبي بكر في فضلــه وتقدمه على الأوليــن والآخرين من أتباع الأنبياء والمرسلين في رسوخ اليقين؛ لأنه رضي الله عنه كان بهذه الصدِّيقية ســيد المؤمنين، والرفيق الحميم في الهجرة التي فــرق الله بها بيــن الحق والباطل، وهو بهــذه الصدِّيقية الأنيس في الغــار الذي جعل نفســه فداء لرســول الله ﷺ، فما هــذا التعريف الأجوف لقمة الفضل الأعرف الأشرف؟

وصنيــع ابن إســحاق في ســياقته حديــث المؤاخــاة -وهي من

أهـم وأعظم أحـداث بناء المجتمع المسـلم في مسـتقره الجديد منسـابًا إلى مسـتقبله البعيد- يحمل في حناياه وهج تنفّسـه برئة شـيعية، والإنسـان في عقله وإسـلامه يمكن أن يكـون محبًا غير متعصب، وإلا فهل ضاق علم ابن إسـحاق بأحداث السيرة النبوية -وهـو حامل لوائها، وإمام رواياتها- أن يجد في محصوله الروائي الضخم شواهد ومثلًا للمؤاخاة بين المهاجرين بعضهم لبعض، ما دام هو من القائلين بها المشيدين لبنيانها -غير ما ذكر من مؤاخاة رسول الله ﷺ عليًا رضي الله عنه، ومؤاخاة حمزة بن عبد المطلب زيـد بن حارثة رضي الله عنهما، كما وجـد غيرهُ من القائلين بهذه المؤاخاة؟

وقـد ذكرنا ما ذكـره ابن عبد البر مـن المُثُل والشـواهد لهذه المؤاخـاة مؤيدًا لما ذكره بحديث الحاكـم والترمذي عن عبد الله بن عمر من طريق جُميع بن عمير التيمي، وبيّنا ما فيه في مكانه.

ثم سـكتت حماسـة ابن إسـحاق ليخلـص من مضيـق مؤاخاة المهاجرين بعضهم مع بعض التي لم يسـعفه فكره بغير ما سـنح له، فذهب إلى الحديث عن مؤاخاة المهاجرين مع الأنصار، وذكر منها مؤاخاة جعفر بن أبي طالب معاذ بن جبل، وقد كشـفنا عنها وبيّنا ما فيها من ضعف يشكك في وقوعها.

ثــم أخذ ابن إســحاق يذكر بعض أســماء المتآخيــن في مؤاخاة المهاجريــن مع الأنصار، وذكــر منهم مَنْ قيل إنــه آخى بينهم في مؤاخــاة المهاجريــن بعضهــم مع بعض غيــر من ذكره أخًــا له في المؤاخــاة الثانية، فقــال: كان أبو بكر الصديــق، وخارجة بن زيد الأنصــاري الخزرجــي - أخويــن، وقــد كان أبو بكــر الصدِّيق في مؤاخــاة المهاجرين خاصة أخًا لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وعمــر بن الخطاب وعتبان بن مالــك الأنصاري الخزرجي أخوين. وقــد كان عمر رضي الله عنه أخًا لأبي بكر الصديق. وعبد الرحمن بن عوف، وســعد بــن الربيع الأنصــاري الخزرجــي أخوين - وقد كان عبــد الرحمن بن عوف فــي مؤاخاة المهاجرين أخًا لعثمان بن عفــان - والزبير بن العوام وســلمة بن ســلامة بــن وقش، أخو بني عبد الأشــهل أخوين. وقــد كان الزبير بمكة أخًــا لطلحة بن عبيد الله، وعثمان بن عفــان، وأوس بن ثابت الأنصاري النجاري أخوين - وقد كان عثمان بن عفان في مؤاخاة المهاجرين خاصة أخًا لعبد الرحمن بن عــوف، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين - وقد كان طلحة في مؤاخاة مكة أخًا للزبير بن العوام.

ولا نــدري هل كانــت المؤاخاة بيــن المهاجريــن بمكة -عند مــن يقول بها- قاصرة على من ذكرهم ابن إســحاق، ولم تقع بين

غيرهم من سائر المؤمنين في مكة قبل الهجرة؟ أو أن ابن إسحاق أراد ألا يستوعب، واقتصر على ذكر ما يؤدي غرضه، ويحقق ما يبغي من أن رسول الله ﷺ سيد المرسلين، وهو من لا خطير له ولا نظير، كان أخًا لعليّ رضي الله عنه في المؤاخاة بين المسلمين سابقًا ولاحقًا، والله تعالى هو العليم بذات الصدور.

وممن جرى من المتقدِّمين على القول بوقوع المؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم مع بعض محمد بن سعد تلميذ الواقدي راويًا لذلك عن شيخه الواقدي.

بيد أن رواية الواقدي بأسانيدها المتعددة كما ذكرها تلميذه محمد بن سعد في الطبقات أصرح في الغرابة، وأدعى إلى العجب؛ لأن هذه الرواية صريحة في أن هذه المؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم مع بعض إنما كانت بالمدينة بعد الهجرة، وهذا عجيب في غرابته؛ لأنه لا وجه لعقد مؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهم مع بعض بالمدينة بعد الهجرة.

قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر -يعني شيخه الواقدي- حدثنا محمد بن عبد الله عن الزهري، قال: وحدثنا موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: وحدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن إبراهيم بن يحيى بن زيد بن ثابت قال: وحدثنا

موسى بن ضَمْرة بن سعيد، عن أبيه، قالوا: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على الحق والمؤاساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، وكانوا تسعين رجلًا، خمسة وأربعون رجلًا من المهاجرين، وخمسة وأربعون من الأنصار، ويقال: كانوا مئة، خمسون من المهاجرين، وخمسون من الأنصار، وكان ذلك قبل وقعة بدر، وأنزل الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾ (الأنفال: ٧٥) فنسخت هذه الآية ما كان قبلها، وانقطعت المؤاخاة في الميراث، ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه.

فقول الرواية في جميع أسانيدها: لما قدم رسول الله ﷺ آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض قول عجيب، لم نره قولًا لأحد ممن ذهب إلى القول بوقوع مؤاخاة بين المهاجرين خاصة، بعضهم لبعض [في المدينة]؛ لأن المؤاخاة كانت للارتقاء والمعاضدة والمناصرة والمؤاساة، والمهاجرون بعد هجرتهم إلى المدينة لا يختصون بهذه الأمور التي جعلها الشارع مناط المؤاخاة، وإنما يختصون بها في مكة قبل الهجرة، فإن صح وقوع مؤاخاة خاصة بينهم فموضعها مكة، وزمنها قبل الهجرة؛ إذ لا وجه مطلقًا لعقد

مؤاخـاة بيـن المهاجريـن خاصة بعضهـم لبعض فـي المدينة بعد الهجـرة ؛ لأن المهاجرين تركوا أموالهم وراءهم بمكة ، وفرّوا إلى الله بدينهـم وعقيدتهـم ، فكانوا أحـوج إلى المؤاخـاة مع الأنصار لتتحقق حكمة المؤاخاة بالمؤاساة والتعاضد والتناصر والارتفاق .

وهـذا هو ما صرّح به القائلون بالمؤاخاة بين المهاجرين خاصة بعضهـم مع بعض ، وقد نقله ابن حجر في الفتح عن ابن عبد البر ، وصـدّر بـه الزرقاني في شـرح المواهب فقـال : كانـت المؤاخاة بيـن الصحابة مرتين ، الأولى بمكة قبـل الهجرة ، بين المهاجرين بعضهم بعضًا على الحق والمواسـاة ، فآخـى بين أبي بكر وعمر ، وبيـن طلحـة والزبير ، وبين عثمان وعبـد الرحمن بن عوف ، كما رواه الحاكـم ، وهـذا الحديث ضعيف ، أخرجـه الحاكم من طريق جميع التيمي عن عبد الله بن عمر ، وفيه أن عليًا رضي الله عنه قال للنبـي ﷺ : يا رسـول الله ، إنك آخيت بيـن أصحابك ، فمن أخي ؟ قـال ﷺ لعليّ : «أنا أخوك» وجميع ابن عُمَير متكلم فيه بالجرح ، قال فيـه البخاري : في أحاديثه نظر ، ووافق البخاري على ذلك ابن عـدي ، وقال فيه ابن نُميـر : كان من أكذب النـاس ، وقال فيه ابن حبـان : كان رافضيًا يضع الحديث ، وأهون مـا قيل فيه ما قاله ابن حجر في التقريب : صدوق يخطئ ويتشيع .

وقد سبق أن ذكرنا أن أحد رجال سند هذا الحديث في رواية الترمذي حكيم بن جبير، وهو ضعيف، رُمي بالتشيِّع كما قال صاحب تحفة الأحوذي، فقول الترمذي فيه: حسن غريب، لا ينجيه من حكم الضعف، ولا اعتبار بتصحيح الحاكم، فإنه معروف بالتساهل في التصحيح، فالحديث سواء أكان برواية الحاكم أم هو برواية الترمذي لا تقوم به حجة.

الفهـــرس